قسطنطين زريق

معنى النكبة

دار العلم للملايين

آب ١٩٤٨
بيروت

توطئة وتقدمة

●

لست ادعي اني ، في هذه الدراسة المقتضبة لمحنة العرب في فلسطين ، قد « اخترعت البارود » (أو ، بلغة هذا العصر : « القنبلة الذرية ») ، أو اني اكتشفت الدواء الشافي لعلاتنا جميعاً . وانما هي محاولة لتصفية تفكيري ، في هذه الازمة الخانقة التي يترتب فيها على كل فرد من افراد الامة قسطه من الواجب ونصيبه من التبعة . ولا شك في ان اول شرط لحسن القيام بهذا الواجب صحة الفكر واستواء الخطة .

فاذا كان من هذه المحاولة ، لبني وطني وللفئات القومية المناضلة منهم خاصة ، فائدة في ازالة بعض البلبلة السائدة في جوّنا الحاضر ، فهذا غاية ما ارجو . والا فليكن نصيبها

نصيب النافل الكثير مما تصدره مطابعنا اليوم . وعساي ، على كل حال ، ألا اكون قد أخطأت المرمى فاضررت من حيث اردت النفع والفائدة .

بهذا الشعور أتقدم بهذه الرسالة الى كل قومي متحرر من بني وطني عربونَ ايمان ومشاركة وولاء .

٥ آب ١٩٤٨ — قسطنطين زريق

فداحة النكبة

•

ليست هزيمة العرب في فلسطين بالنكسة البسيطة ، او بالشر الهين العابر . وانما هي نكبة بكل ما في هذه الكلمة من معنى ، ومحنة من أشد ما ابتلي بـه العرب في تاريخهم الطويل ، على ما فيه من محن ومآسي .

سبع دول عربية تعلن الحرب على الصهيونية في فلسطين ، فتقف امامها عاجزة ثم تنكص على اعقابها . خطب نارية يلقيها ممثلو العرب في اعلى الهيئات الدولية منذرة بما ستفعله الدول والشعوب العربية إن صدر هذا القرار او ذاك . وتصريحات تقذف كالقنابل من افواه الرجال الرسميين لدى اجتماعات

الجامعة العربية . ثم يجد الجدّ فاذا النار خافتة باهتة ، وإذا الصلب والحديد صدىء ملتوٍ سريع العطب والتفتت ، وإذا القنابل جوفاء فارغة لا تحدث اذى ولا تصيب مقتلا .

سبع دول تتصدى لابطال التقسيم ، وقمع الصهيونية ، فاذا بها تخرج من هذه المعركة وقد خسرت قسماً لا يستهان به من ارض فلسطين ، بل من الجزء « المعطى » للعرب في التقسيم ، واذا بها تُقهر قهراً على قبول هدنة لا مصلحة لها فيها ولا غناء .

قضية لم يعرف التاريخ أعدل منها وأقرب إلى الحق : بلد يُغتصب من أهله ليُجعل وطناً لشراذم من الخلق ينزلونه من شتى اقطار العالم ويقيمون فيه دولة رغم انوف اصحابه والملايين من اخوانهم في الاقطار المجاورة . ومع ما في يد العرب من حق صراح ، وما في بلادهم من امكانيات ، وما للدول فيها من مصالح يساوَم عليها – مع هذا كله ، يقفون فُرادى في الميدان الدولي ، تعاديهم الدول العظمى ويناوئهم الرأي العام العالمي ، وليس لهم حليفٌ قوي قد اعدوه ليسندهم في مثل هذا الظرف وينصرهم في صراعهم .

اربعمائة الف عربي أو اكثر يشردون من بيوتهم ، وتنتزع منهم اموالهم واملاكهم ، ويهيمون على وجوههم في ما تبقى من فلسطين وفي البلدان العربية الاخرى ، لا يدرون ما يخبئه لهم القدر أو أي مورد من موارد العيش يرتادون ، ويتساءلون عما اذا كان سيحكم عليهم بالعودة الى

بلادهم ليعيشوا تحت ظل الصهيونيين ، ويتحملوا ما يفرضونه عليهم من أذى وإهانة ، واذابة وإفناء .

بل شر من هذا ! فقد تحول التشتت والتشرد من اليهود إلى العرب . فبعد أن كان العرب لا يعترفون للمشردين اليهود بحق ، وبعد ان كانت الهيئات اليهودية تسعى لدى المنظمات الدولية لحل معضلتهم باقامة الوطن الصهيوني في فلسطين ، إذا بالدول العربية الآن تستعطف هذه المنظمات لاعادة مشردي العرب الى بلادهم الواقعة تحت الحكم الصهيوني ، وتجعل ذلك شرطاً لتحويل « وقف القتال » الى « هدنة » .

وعلى الاجمال : لم يكن الوطن الصهيوني في فلسطين أقرب يوماً الى التحقيق منه في هذه الايام . وبالعكس ، لم يُصَب الكيان العربي بعدُ بما أصيب في هذه المعركة من تصدع وانهيار .

وفوق الانهيار المادي انهيارٌ معنوي يتمثل في شك العرب بحكوماتهم ، واتهاماتهم لقادتهم وزعمائهم ، بل شك الكثيرين منهم في انفسهم وفي قابلياتهم كأمة ، وتسرب اليأس إلى صدورهم ، وتهربهم من مجابهة الخطر ، وتضاؤلهم امام عظم المصيبة . ولعمري ! ان هذا الانتكاس المعنوي الروحي لاهمّ من الخسارة المادية مهما عظمت ، لان الشعب إذا تفتت عزمه وخسر ثقته بنفسه ، فقد أضاع خير ما يملك وعجز عن ان ينهض بعد كبوة ، أو أن ينفض عن نفسه

غبار الذل والخذلان .

هي ذي بعض وجوه النكبة التي لحقت بالعرب في هذه المعركة من حرب فلسطين . وكفى بها ، وبامثالها مما يدور على الالسن ويختلج في القلوب ومما يشاهده ويسمع به كل منا في هذه الايام العصيبة ، دليلا على خطورة المحنة ، وشدة المأساة .

*

على ان من العدل والانصاف أن نسرع فنقول إن أسباب هذه الكارثة لا تعود كلها إلى العرب انفسهم . فالعدو المتصدي لهم قوي الشكيمة ، غزير الموارد ، بعيد الاثر ، قضى السنين – بل الاجيال – وهو يتأهب لهذا الصراع . وقد بثّ نفوذه وسلطته في مشارق الارض ومغاربها ، واستولى على كثير من مصادر القوى في الدول العظمى ، حتى دانت هذه له أو اضطرت إلى ممالأته . وهو إذا حشد قواه على احدى هذه الدول اتعبها واستأثر بكثير من مصالحها ، كما اظهر التاريخ البعيد والقريب فعلاً في كل من دول الارض العظمى . فكيف به ، وقد نازل أمة لا تزال في بدء نهضتها ، وفي المرحلة الاولى من تكونها الاجتماعي والسياسي – أمة ظلت قروناً مقهورة على نفسها بحكم استبدادي كاد يجردها عن ذاتها ، وما لبثت منذ ان خلعت عن نفسها هذا الحكم الثقيل تسعى لانتزاع حريتها واستقلالها من اقوى أمم الارض وابعدها نفوذاً ؟؟ ليست الصهيونية تلك الجوالي والمستعمرات المنتشرة في فلسطين

فحسب ، وانما هي الشبكة العالمية ، المجهزة علماً ومالا ، المسيطرة في بلاد العالم النافذة ، المسخرة كل قواها لتحقيق هدفها في بناء وطن لابنائها في فلسطين .

فمن الواجب أن نقر بهذه القوة الهائلة التي يمتلكها العدو وان نحسب لها حسابها عندما ننظر في معضلتنا الحاضرة ونسعى لمعالجتها . فلقد كان من شر ما بُلينا به في السنوات الاخيرة أننا ، بينما كنا نطنب في تبيان هذه القوة وشرورها للغير ، كنا نحن بالفعل مستهترين بها ذاهلين عن ازديادها وتكتلها على الايام . ثم عندما نشبت المعركة أخذت دعايتنا الداخلية تلهج بانتصارات لنا خيالية ، وتخدر الجمهور العربي بسهولة صراعنا الحربي ومقدرتنا على التفوق والانتصار – الى أن وقعت النكبة ووقع معها رد الفعل المرير . ولعل ان يكون من حسنات هذه الهزة العنيفة ان تردنا إلى الواقع ، وتنبهنا إلى حقيقة الحال ، فتساعدنا على أن نقدر الامر قدره ونتخذ له عدته .

قلت : من الحق والواجب أن نقر بقوة العدو الهائلة ، فلا نحمل انفسنا من اللوم فوق ما تستحق . ولكن من الحق والواجب كذلك ان نقر باخطائنا ونتبين مصادر الضعف في كياننا ، وان نعرف مدى مسؤوليتنا في هذه الكارثة التي اصابتنا . ومن الشر كل الشر أن نتهرب من هذه المسؤولية ، ونعمي أبصارنا عن مناحي تقصيرنا ، فننحي باللائمة على هذا او ذاك من سوانا دون أن نرى الضعف

العيب والفساد في نفوسنا . فما اكثر ما نسمع بيننا اليوم ومن شتم لليهود ، ومن تنديد بالانكليز والأميركان والروس ، وبمجلس الامن ووسيط الامم المتحدة ، وبكل من يقف مناوئاً لنا في هذا الصراع . لا شك في أن هؤلاء عادونا ويعادوننا ، ومن الضروري أن نحذرهم وأن نذكر لكلٍّ موقفه ونحاسبه عليه كلما سنحت لنا الفرصة واكتملت عندنا القوة . لا شك في انه يجب أن نحمّل كلاً منهم مسؤوليته أمام التاريخ ، ونجابهه بها ما استطعنا الى ذلك سبيلاً . لا شك في انه يجب ان نحفظ هذا كله في قلوبنا ونلقنه ابناءنا واحفادنا ، ونعتبره في رسم سياستنا وتدبير امورنا . ولكن يجب ان لا ننسى ، في الوقت نفسه ، أن السياسة لا تزال قائمة على القوة والمصلحة ، وان كلا من هذه الدول تتبع مصلحتها اولا ، وانه لا يكفينا أن نندّد بها ونحملها مسؤوليتها ، اذا نحن لم نندّد اولا بمواطن الضعف فينا ونحمّل أنفسنا ما يترتب عليها من تبعة وما يصيبها من نصيب في نكبتنا الحاضرة . وإذا كان التهرب من الواقع ، والقاء العبء على الغير ، شراً خطراً في الايام العادية ، فهو في ايام المحن والشدائد أصل العلة ومصدر الفساد . وليس أفضل من هذه الايام فرصة لمحاسبة النفس ، ولاستكشاف مواضع الضعف والعمل لمداواتها ، أو البدء بذلك على الاقل .

*

ومن العدل والانصاف كذلك عند نظرنا في هذه النكبة وتقديرنا لمداها ونتائجها أن نعلم انها معركة في حرب طويلة الامد ، واننا اذا غُلبنا فيها ، فليس معنى ذلك اننا خسرنا الحرب كلها ، أو هُزمنا هزيمة نهائية لا قيام لنا بعدها .

أجل ! إن هذه المعركة فاصلة من وجوه عدّة . فعليها يتوقف تأسيس الدولة الصهيونية أو بطلانها . وإذا خسرنا المعركة بكاملها ، وتأسست هذه الدولة فمما لا شك فيه أن اليهود في العالم اجمع سيحشدون قواهم كلها للاحتفاظ بها وتقويتها وتوسيعها كما حشدوها لانشائها . ولكن التاريخ مليء بالمفاجآت : والكيان المفروض بالقوة ، الذي لا يقوم على سنن الطبيعة والاجتماع ، لا يمكنه ان يبقى طويلا إذا جابهته قوى طبيعية حية متمشية مع مجرى التاريخ .

ولذا ، فلا مبرّر لليأس يستولي على نفوسنا ، ويشلّ فعاليتنا ، وينزع منا ثقتنا بانفسنا وبامتنا ، كما فعل بالكثيرين منا ، فاحدث ذلك التخاذل المعنوي الروحي الذي قلت إنه أشد خطراً وأعظم هولاً من الخسارة المادية والهزيمة الحربية . بل علينا ان نعد للغد عدته ، وان نأخذ للمعركة القادمة اهبتها ، وان نتعلم من اعدائنا النظر البعيد ، والترتيب المحكم ، والخطة المدبرة ، والسعي الحثيث سنوات ، بل أجيالا ، لتحقيق المطلوب وبلوغ الغاية . فما اكثر ما نُكب اليهود في تاريخهم ، بل ما اكثر ما تعرض كيانهم

في فلسطين في السنوات الاخيرة للانهيار والزوال . ولكنهم ظلوا صابرين على المكاره ، متحملين للشدائد ، واضعين أعينهم على الهدف المنصوب ، إلى أن بلغوا ما بلغوه اليوم من قوة وبأس .

لا ! لست أعني بالدعوة إلى العمل البعيد المدى ، وإلى النظر إلى الحرب بكاملها ، بدلا من الاقتصار على المعركة الحاضرة — لست أعني بذلك مجرد الانتظار للحوادث تأخذ مجراها ، والاتكال على الظروف تتناسب وتتوافق . فما الاتكالية المتفائلة بالنجاح المحتم ، استناداً إلى الظروف والمناسبات ، خيراً من التشاؤم المطبق واليأس الشالّ الذي تثيره الهزيمة الآنية . ففي كليهما تهرّب من الواقع ، وتخلص واع أو غير واع من المسؤولية المترتبة والواجب المفروض .

وانما أعني بالنظر والعمل البعيدين ، الاهتمامَ والتدبير على نطاق واسع ولمدى طويل . أعني مجابهة الواقع كما هو ، وتعيين الغرض المطلوب ، ورسم الخطة المحكمة لبلوغه ، وتحقيق ذلك يوماً بعد يوم ، دون يأس أو أي نوع من أنواع التهرب . هذه هي الطريق التي رسمها التاريخ للظفر في الحروب ، ولبناء الدول وتكوين الامم .

*

عسى أن أكون في ما ذكرت آنفاً قد اصبت الحق في وصف نكبتنا الحاضرة في فلسطين ، فابنت عن خطورتها وفداحتها ، وشدتها علينا في حاضرنا ومستقبلنا . وعساي

أكون كذلك قد صورتها في واقعها ، ورسمت الاتجاه الذي يجب أن نتخذه منها ، والنظر الذي يقتضي أن ننظر به اليها . فهذه هي الخطوة الاولى الضرورية لتحليل أية معضلة ، ولبحث سبل معالجتها .

واجب المفكر

●

من شرّ ما تُحدثه بعض المحن والشدائد في الامم توزّعُ الآراء وتفرّق النزعات في الافراد والجماعات . فترى هؤلاء من شدة ما يصيبهم ذاهلين ضائعين : يؤخذون حيناً بهذا الرأي ، وحيناً بذاك ، ويتبعون أيّ دليل يدّعي القيادة ، الى طريق الخلاص .

وشبيه بهذا ما حلّ بجمهور الشعب العربي ، بل بقادة رأيه ومثقفيه ، اثر النكبة التي حلّت بالعرب في فلسطين . فالواقع ان مئات الالوف من اهل هذا البلد المنكوب لم يشردوا من بيوتهم ويهيموا على وجوههم

فحسب ، بل ان افكارهم وآراءهم ، وافكار ابناء وطنهم في شتى منازلهم ، قد شردت ايضاً وهامت ، فانتشرت فيهم بلبلة في الرأي ، أقلّ ما يقال فيها انها نذيرٌ بشرّ اعظم اذا لم تُبدّد ويحل محلها تفكير صافٍ وعزم موحد .

من مظاهر هذه البلبلة هذه الاتهامات المختلفة تكال حيناً لهذا وحيناً لذاك ، وتُصَبّ على هذه الجهة او تلك . وترى الناس من اثرها شيعاً ينحازون الى دولة من الدول العربية على اخرى ، ويهاجمون هذا او ذاك من زعماء العرب وقادتهم ، فيشغلون بذلك عن التفكير في العدو المشترك والمصاب الملمّ .

كذلك نختلف في تعليل النكبة وتحليل اسبابها . فمنا من يُرجعها الى نقص في الدعاية لقضيتنا الحق ، وآخرون لقلة استعدادنا بالعُدَد والاسلحة ، وغيرهم الى اختلاف النظر والعمل بين دولنا العربية ، او إلى غير هذه من مواطن الضعف فينا .

وتبرز هذه البلبلة ، بصفة خاصة ، في صفوف الشباب الواعي ، المتحفز للعمل ، المستعد لبذل ذاته في سبيل وطنه والمساهمة في حمل اعباء امته . ينظر هذا الشباب الى نفسه ، والى ماضيه : يتفحص ما قام به من اعمال ، وما حاول ان ينشىء من احزاب ، وما بذل من جهود في سبيل القضية العامة ، فيجد ان هذه كلها لم تكن وافية بالغرض المطلوب ، فلا هي استطاعت ان ترد الكارثة ، ولا

ارضت نوازع هذا الشباب او اشبعت طموحه الملحّ لخدمة أمته وتحريرها . ويتساءل هذا الشباب عما يجب ان يفعل تداركاً لشرور الحاضر ، ودفعاً لاخطار المستقبل ، فلا يجد امامه سبيلا واضحاً او اسلوباً معيناً . فيتخبط في شتى الآراء والاتجاهات ، ويتطلع حيناً الى هنا ، وحيناً الى هناك ، ويدور فكره في الاكثر على نفسه ، فلا يؤدي الى نتيجة ايجابية او اثر محسوس .

هذا النفر من الشباب ، الواعي ، المتلمس طريق الواجب ، المستعد للعمل والتضحية ، المتحرق لخدمة الوطن هو ذخر هذه الامة وعدتها لمستقبلها . هذا الشباب هو اليوم مضطرب البال ، موزع الفكر ، مشتت الارادة . اجلس في أيّ من مجالسه شئت ، ترَ هذا الاضطراب قائماً ، وتلمس البلبلة الشديدة الاليمة في تعليل الوضع الحاضر ، وفي تحرّي سبل الخلاص .

ولا جدال في أن هذه البلبلة ليست شراً كلها ، فان فيها من التساؤل والمحاسبة والتألم النفسي ما قد يشق طرقاً جديدة للمستقبل . ذلك أن التساؤل هو الخطوة الاولى للتقدم الفكري ، كما أن الالم قد يبعث قوى النفس ويحفزها لبذل اوفر وجهد أشد .

غير أن هذا التساؤل والتألم قد يضيع ويذهب سدى ، بل قد ينقلب شراً وسوءاً — قد يتحول التساؤل الى حيرة وضياع ، والألم إلى يأس قتال أو سلبية هدّامة — إذا لم

يتصدّ لهما الفكر النير ، فيفصل بين الصواب والخطأ ، بين العناصر الايجابية والسلبية ، بين عوامل القوة والامل وعوامل الضعف والخيبة ، فينصر الاولى على الثانية ، ويوجهها التوجيه الحسن إلى ما يحفظ الامة ويُبقي ثقتها بنفسها .

هي ذي اذن وظيفة الفكر الواعي في هذه النازلة ، بل في كل شدة أو ازمة . هي أن يأخذ على عاتقه قيادة الرأي وسط الاضطراب والحيرة ، هي أن يلقي ضوءاً على الوضع المتخبط ، فيظهره على حقيقته ، ويميز بين مختلف عناصره ووجوهه . وظيفته أن يفرق بين الاسباب والنتائج ، فلا يقدّم الثانية على الاولى ، وان يفصل بين الاسباب البعيدة والقريبة وبين الاصول والفروع ، فيعطي لكل شيء اهميته ، ويقدره قدره في العملية المعقدة المتشابكة .

فاذا فَصَلَ هذا الفصل وميز هذا التمييز عمد إلى وصف سبل المعالجة ، فتناول الاسباب القريبة بمعالجة قريبة ، وتوجه إلى الاسباب البعيدة بعمل طويل النفَس واسع المدى ، ولم يهتم بالمظاهر اهتمامه بالعوامل ، ولم يبذل للفروع ما يجب أن يبذله للاصول .

ولعل قادة العمل وحاملي المسؤوليات الكبرى لا يرتاحون كثيراً إلى مثل هذه المهمة يأخذها المفكر على عاتقه . وهم في ذلك على حق إذا كان الفكر مجرداً لا تتصل جذوره بالواقع ، وإذا كان المفكر غير شاعر بالمسؤولية ، أو وازنها بالميزان الصحيح العادل . حينئذ يحق لهم ان

يقولوا : « الحرب بالمنظار هيّن » ، وان ينظروا الى المفكر شزراً ، ويستخفوا به . حينئذ يكون الفكر خليقاً بذلك ، بل خليقاً بان يخفق من ذاته مهما كانت نظرة رجال العمل اليه ، وتصرفهم نحوه .

ان هذا الشعور بالمسؤولية المترتبة على كل فرد من افراد الامة ، وعلى مفكريها خاصة ، في هذا الظرف العصيب ، هو بالذات الدافع إلى وضع هذه الرسالة ، وهو ما يشفع – فيما ارجو – بما تتضمن من خطأ أو تنطوي عليه من ضعف . وما دامت ناشئة عن هذا الشعور ، ومتسلحة بهذه العدة ، فلن تخشى مذمة أو ملاماً في تبيان الخطأ وتحديد التبعة ، وفي الكشف عن جذور الكارثة الحاضرة ، والدعوة بصراحة وقوة إلى اقتلاعها . فلعلّ ان يكون منها بعض الفائدة في تبيان طريق الخلاص ودفع الفكر والنفس اليها .

المعالجة القريبة

●

قلنا ان نكبة العرب في فلسطين – كأمثالها من الاحداث في التاريخ – لها أسباب قريبة وأخرى بعيدة . وعلى الفكر أن يميز بين هذين النوعين من الاسباب ، وأن يبيّن نوع المعالجة التي تناسب كلا منهما وتكون كفيلة باستئصاله والتغلب عليه .

فلننظر إذن أولا في المعالجة القريبة ، لنرى ما يجب عمله لتدارك الخطر المحيق ، وللوقوف في وجهه ومنع طغيانه ، اذا لم يمكن الآن القضاء عليه قضاء تاماً نهائياً . على انه لا بُدّ من أن نلاحظ اولا انه لا يمكن الفصل فصلا

تاماً بين الاسباب القريبة والبعيدة ، فما الاولى في أحيان كثيرة سوى مظاهر للثانية وثمار ناشئة عن بذورها . وليست الحياة البشرية من البساطة بحيث يمكن تقسيمها وتنظيمها وإقامة الحدود بين اجزائها بصورة اصطناعية . وهكذا لن تكون سبيل المعالجة الآنية مستقلة عن سبيل المعالجة الاساسية البعيدة ، بل هي مرتبطة بها ومتفرعة عنها . وعلى المفكر والمصلح أن يتناول الواجبين معاً ، وينظر اليهما كوحدة ، ولا يغفل عن النسبة ، بينهما ، بل يتصدى لكل منهما وعينه متجهة إلى الآخر بحكمة ودراية ، وحسن تدبير وتنظيم .

وليس بالامكان ، في هذه المحاولة الدراسية ، التعرض بجزئيات المعالجة – القريبة والبعيدة – ولتفاصيلها العديدة المتفرعة ، خصوصاً اذا كانت تلك الجزئيات تنتظم في كليات ، وهذه التفاصيل والفروع ترتد إلى أصول تجمعها وتوحد بينها .

فما هي الاصول التي تستمد منها المعالجة القريبة ، والاركان التي تقوم عليها ؟

*

اركان هذه المعالجة ، بل هذا الجهاد ، في نظري ، خمسة : اولها تقوية الاحساس بالخطر ، وشحذ ارادة الكفاح . فهنا الخطوة الاولى ، والعامل الاصلي . ولعل البعض يعتبر هذا القول خطأ أو جزافاً . كيف لا !

واعمدة صحفنا طافحة بالمقالات المفصلة للخطر الصهيوني ، والمحذّرة منه ، والخطب في هذا الموضوع تترى في كل آن ومكان ، وذكر الصهيونية وشرها يكاد يكون على كل شفة ولسان .

غير ان الواقع انه بالرغم من هذه الاقوال والاعمال لا يزال الجمهور العربي ، بل فريق كبير من مثقفيه ، بعيدين عن الاحساس الكافي بالخطر الاعظم الذي تمثله الصهيونية ، على كل بلد من بلدان العالم العربي . اذ لم تبين لهم بصورة مادية محسوسة وجوه هذا الخطر على موارد كسبهم ، بل على كيانهم بالذات . ومع ما شاهدوا من الالوف المشردة ، وما سمعوا عنه من أخبار التهديم والقتل والتمثيل وسواها من الفظائع ، فانهم لم يدركوا بعد حقيقة الصهيونية ، وقوتها العالمية ، وغايتها في الفتح والافناء ، وقساوتها العارية في تحقيق هذه الغاية . لم يدركوا شدة النزعة الكامنة في صدور القوم ، العاملة المتزايدة خلال العصور ، في سبيل تأسيس دولة لهم في فلسطين ، ثم ما تشرّبه فتيانهم وشبابهم في السنوات الاخيرة من النازية وسواها من حب السيطرة والفتح ، وما يجدون في البلاد العربية ، الغنية الموارد ، المحتلة مركزاً وسطاً في العالم ، من مجال لجهدهم القومي التوسعي هذا .

ولكن ما لنا ولجمهور الشعب . ألسنا نرى بين بعض حكامنا واركان دولنا العربية من يضع هذه القضية او تلك

من قضايا بلاده على مستوى القضية الصهيونية أو قبلها ، فيسمح لنفسه بان ينحرف عن معالجة الخطر الاكبر الشامل الى الاهتمام بالخطر الاصغر الزائل . فلا السودنة ، ولا معاهدة بورتسموث ، ولا قضية النقد السوري اللبناني ، ولا أيّ من المشاكل المشابهة ، توازي الصهيونية خطراً وبعدَ أثر . إذ أن ما تمثله من استعمار وعبوديّة شرٌ زائلٌ يوماً ، مهما بعدت أيامه وطالت جذوره . أما الاستعمار الصهيوني ، فغايته إبدال وطن بوطن ، وافناء قوم ليحل محله قوم آخر : هو الاستعمار العاري المجرد باوضح الوانه وأفظع أشكاله . وعلى هذا ، فلا يجوز أن يشغلنا عنه شاغل ، حتى تلك المشاكل القومية التي اقضت مضاجع حكوماتنا وما تزال . هذا إذا صرفنا النظر عن السياسات التافهة ، والعنعنات الضارة ، والمنافسات الحزبية ، والشهوات المحلية ، التي كان يجب ان تلم أذيالها وتستحي ، وتختفي من الميدان في هذا الظرف العصيب ، وتجاه الخطر الجاثم .

ونحن كثيراً ما نسمع ونقرأ في الصحف عن حاجتنا الى الدعاية لقضيتنا في البلدان الاجنبية . ومع ما في هذا القول من صحة ، فان الناظر المحقق ليرى انه بجانب هذه الدعاية الخارجية ، يجب أن ننظم دعاية داخلية في عقر دارنا ، وأن حاجتنا إلى هذه ليست أقل من حاجتنا الى تلك ، بل قد تكون أقوى منها وأشد .

المهم في هذا التنبيه الداخلي أن يستقر في الذهن العربي

وفي النفس العربية أن الخطر الصهيوني هو الخطر الاعظم على الكيان العربي . الاخطار الاخرى تتوجه إلى بعض اجزاء هذا الكيان ونواحيه ، أو تشمل العالم العربي وسواه من أجزاء المعمور . أما هذا الخطر فهو موجه إلى الكيان العربي بذاته ، بمجموعه ، باسس وجوده . فكل ما سواه هين بالنسبة اليه ، ويمكن أن يُتسامح به ، أو يؤجل حله ، في سبيل دفع هذا الخطر الاشد الاشمل وصيانة النفس منه .

هذا ما يجب ان يوضع امام الشعب العربي ، مسنوداً بالارقام والوقائع . هذا ما يجب ان يستقر في ذهن حكامنا وعامتنا . هذا ما يجب ان نلخصه في فِكَر قاطعة وعبارات محكمة ، ونلقنه ابناءنا وطلبة مدارسنا صباحَ مساء . هذا ما يجب ان تنصرف اليه اولا دوائر الدعاية في حكوماتنا ، مستخدمة الصحف والراديو وكل سبيل آخر من سبل النشر ، لتنمي في نفوس العرب اجمعين هذا الاحساس بالخطر ، بالخطر الاعظم ، بالخطر الفريد ، كي يكون كل فكر من افكارنا وكل عمل من اعمالنا متأثراً بهذا الشعور وصادراً عنه . فاذا قوي هذا الاحساس قويت معه ارادة الكفاح ، هذه الارادة التي لا تزال ، مع الاسف ، ضعيفة فينا . فكفاحنا في هذه المعركة كان ، على العموم ، كفاحَ متصنعٍ متمهل ، لا كفاحَ مستميتٍ ، كأن الجهاد كان فرضَ كفايةٍ لا فرض عين .

هذه التعبئة الحسية الارادية ، هي ، في نظري ، الركن

الاول للجهاد الحاضر لدرء الخطر الصهيوني الجسيم .

*

أما الركن الثاني فهو التعبئـــة المادية في ميادين العمل كلها . هو تجنيد قوى الامة الحربية بكاملها ، وتوجيهها الى ميدان الصراع . ورب قائل يقول : ان الدول العربيـــة لاتزال ناشئة ، وجيوشها قليلة العدد هزيلة العُدد ، وان في داخلها ومن حولها من المشاكل والمخاطر ما لا يسمح لها بان تلقي بمواردها الحربية كلها في الميدان . وفي هذا ما فيه من الصحة . غير انه يصعب على المرء ان يقتنع بان هذه الدول السبع لا تستطيع ان تحشد اكثر مما حشدته ، او انها — لو توفر لها الشعور بالخطر وارادة النضال على وجهها الصحيح ، ولو احكمت الخطة واوثقت التدبير — لما استطاعت ان تجمع قوة حربية اعظم كثيراً من هذه التي انزلتها للميدان فعجزت عن أن تقف في وجه الصهيونيين . ومن العيب الشائن حقاً ان تظهر الدول العربية — وملايينها التي تتبجح بها دوماً — بهذا العدد الضئيل من الجيوش ، وبهذا العجز عن دك معاقل الصهيونية ، بل عن الصمود امامها . واذا كان الصهيونيون بحدودهم الجغرافية الضيقة قد تمكنوا من تجهيز أنفسهم هذا التجهيز الوافر الواسع ، فلمَ يعجز العرب — بحدودهم الواسعـــة المفتوحة للشرق والغرب — عن أن يستجلبوا بالطرق المشروعة وغير المشروعة ما يحتاجون اليه ، أو على الأقل ما يُظهرهم بمظهر حربي أقوى مما ظهروا به ،

ان كان حقاً ان هذا كان جل ما استطاعوه . ومع الاعتراف بما للصهيونيين من موارد غزيرة وما يسندهم من قوى سياسية ومالية هائلة ، فان امكانيات الدول العربية من هذه الوجوه هي ايضاً غير قليـــلة ، لو احسن استغلالها وتم لها التنظيم المحكم والتدبير المنشود .

وبجانب التعبئة الحربية ، التعبئة الاقتصادية . فهي العصب الحساس والمورد الراوي . ولا أظن ان الشعوب العربية ، اذا تفهمت حقيقة الخطر ، تحجم عن التضحية بما يجب في سبيل هذه التعبئة . وانه لمما يحزن حقاً ان المناضلين العرب كانوا يفتقرون مثلا الى أبسط أنواع الادوية وأدوات المعالجة ، وان رسلهم كانت تؤم بيروت ودمشق وسواهما من المراكز العربية ، لتستحصل على بعض الحاجات الاساسية التي يصعب على المرء أن يتصور عدم وجودها ، في حين ان جميع الجهات الحكومية والشعبية المسؤولة كانت تعرف اننا قادمون على قتال ، بل كانت هي نفسها تهدد بالقتال وتتوعد به . ومن المؤسف المثير ان نرى هؤلاء الرسل يطرقون أبواباً مختلفة ، فيظفرون حيناً ويخفقون احيانا ، دون ان تكون هنالك سلطة واحدة معينة تُعنى بهذه الناحية على الاقل من نواحي الجهـاد .

وكم هي مؤلمة تلك الملاحظات الـــتي يسمعها احدنا من الزوار والمشاهدين الاجانب الذين كانوا يؤمون البلاد العربية في ايام القتال ، فلا يرون فيهـــا مظهر الحرب الحقيقية .

يرون السيارات بالالوف تلتهم بنهم عنصراً من أهم عناصر الحرب ، ويشاهدون الناس يقبلون على اسباب اللهو والسرور ، وعلى الحفلات والدعوات ، شأنهم فيما قبل ، دون أن تغير الحرب التي شنتها دولتهم والدول العربية الأخرى اياً من عاداتهم ، أو أن تحرمهم شيئاً من ملذاتهم . ولقد كان احدنا ، وما يزال ، إذا سمع ملاحظات هؤلاء الناقدين ، صادقين كانوا أم غير صادقين ، لا يجد نفسه قادراً على ردها ، بل يشعر في داخله بخجل عميق .

ومع التعبئة الحربية والاقتصادية تجري التعبئة السياسية : في الداخل لتوحيد اغراض الدول العربية وسياساتها ، وفي الخارج لاستمالة الدول الاجنبية . ولا نكران أن ساسة العرب قد بذلوا جهدهم في الناحية الاولى ، ولعلهم لا يستطيعون في الوضع الحاضر ان يبلغوا أبعد مما بلغوه ، ما دامت الاطماع لا تزال متحكمة ، ومصالح السلالات والافراد نافذة ، وما دام الرأي العام في العالم العربي لم يتنبه بعدُ ويقوَ إلى الحد الذي يضغط به على ارباب هذه الأطماع والمصالح الضغط الكافي ليتجردوا منها ، قبل ان تُدك ارائكهم ويذهبوا هم واطماعهم هباءً منثوراً .

أما العمل السياسي الخارجي فقد حاوله ايضاً ساسة العرب فارسلوا الوفود واتصلوا بممثلي الدول ، وبثوا دعاياتهم في المؤتمرات الدولية ، ولكن جهودهم في هذا السبيل كانت متفرقة غير حازمة . ولا يزال هنالك مجال واسع للعمل .

وقد شعرت الجامعة العربية بهذا في الايام الاخيرة ، فكلفت بعض اركانها — على ما قالت الصحف — القيام بمسعى سياسي قوي في اوروبا الغربية قبل انعقاد هيئة الامم المتحدة في ايلول القادم . وهكذا دوماً تكون محاولاتنا : لا تنفيذاً لخطة محكمة بعيدة الامد ، بل بسبب مناسبة ، وفي الساعة الاخيرة .

أما الاتصال بالدول الكبرى فسأتناوله في القسم الخامس من هذا الفصل . على أن هناك دولاً أخرى يجب تمكين الصلات بها ، كدول اميركا اللاتينية مثلاً . ومع أن أكثر هذه الدول خاضع للنفوذ الاميركي والضغط الصهيوني ، فلا يحسن بوجه من الوجوه اهمالها ونفض اليد منها . وهناك كذلك الدول الشرقية في آسيا التي تجمعنا بها اخطار الاستعمار الغربي ، والتي عطفت على قضيتنا وآزرتنا ، والتي يجب تنمية صلاتنا بها لضمان هذه المؤازرة وتقويتها . ومن المؤسف ان روابطنا بهذه الدول لا تزال ضعيفة ولا تتعدى بالاكثر اتصال وفودنا بوفودها في المؤتمرات الدولية عند تأزم الخطر وتألب القوى .

هذا فيما يختص بالاتصال السياسي بالحكومات ، وتعبئة القوى العربية من هذه الناحية . أما فيما يختص بالدعاية الشعبية والتوجه إلى الرأي العام في هذه الدول ، فلقد كان جهد الدول العربية ضئيلاً جداً ، وكان يأتي من مصادر مختلفة : حيناً من الجامعة نفسها ، وحيناً من بعض دولها ، وحيناً من المكاتب العربية التي لم يتضح تماماً باسم من تتكلم .

فكان من الواجب ان تقوّى هذه الجهود وتعزز ، وتتألف وتتوحد ، لتحدث اثرها وتؤتي ثمرها . على ان هـذه الدعاية الشعبية لن يكون لهـا ، مهما قويت وتعززت ، أثر بارز في المعركة الحاضرة ، لان الوقت قصير والخطر مداهم ، وعمليـة التأثير في الرأي العام ليؤثر بدوره في حكوماته عملية طويلة المدى . ولذا ، فمع حاجتنا الى تقوية هـذه الدعاية وتوسيعها استعداداً للمعارك القادمة وللحرب الطويلة ، فان جل جهدنا في هـذه المعركة الحاضرة يجب ان ينصرف إلى الاتصال بالحكومات ذاتها ، والتكلم بلغة المصلحة لا بلغة الحق والعدل ، وتعبئة جميع قدرتنا على المساومة ، في هذه السبيل . هذه التعبئة لقوانا السياسية يجب ان تمشي يداً بيد وتنتظم مع تعبئة مواردنا الحربية والاقتصادية بل جميع نواحي حياتنا .

هذا إذا أردنا النجاة والبقاء. وبالعكس، فان الاستهتار والتهاون في هذه التعبئة العامة سيودي بنا إلى شر مما أودى ببعض دول أوروبا الكبرى في الحرب الاخيرة . ومردّ هذا الاستهتار ، بلا جدال ، إلى ماأشرنا اليه سالفاً ، من عدم الاحساس بالخطر إحساساً كافياً، وبالتالي عدم تنمية الارادة الواجبة للكفاح والنضال.

لقد أصبحت الحرب اليوم حرباً شاملة ، لا تقتصر على الجنود في ميادين القتال بل تتعداهم إلى الشعب بكامله ، ولا تكتفي بجانب من موارد الامة ، بل تتطلب تجهيز هـذه الموارد بكاملها . وقد فهم اعداؤنا هذه الصفة الاساسية من صفات الحرب الحديثة ، فاعدوا للامر عدته وعبأوا له جميع

مواردهم في الميادين كافة .

هذا هو واجبنا في الوقت الحاضر ، والى مثل هـذه التعبئة يجب أن نتوجه . واذا اضطرنا ذلك لان نوقف أعمال الاصلاح والبناء الداخلي ، وإلى أن نحوّل لذلـك الغرض مخصصات الاشغال العامة والمعارف والزراعة بل جميع موارد الدول العربية — فوق القدر الاقل الكافي للحياة — فليكن ! اذ لا الطرقات ، ولا الابنية ، ولا المدارس ، ولا الاونيسكو ، حتى ولا الحفلات والمآدب ، لتغنينا نفعاً اذا انتصر الصهيونيون في هذه المعركة نصراً مؤكداً وأسسوا دولتهم ، وغرزوا مخالبهم في جسم الامة العربية ...

*

ومن البديهي ان هذه التعبئة في كل من الدول العربية لا تكفي إذا لم تتوحد جهود هذه الدول إلى مدى أبعد مما بلغته في الأدوار السابقة من هذه المعركة . ولذا فالركن الثالث للجهـاد الحاضر هو تحقيق أكبر قسط من التوحيد الممكن بين الدول العربية : في ميادين الحرب ، والسياسة ، والاقتصاد ، وسواها . ولا ريب في أن هذا التوحيد مقيّد — كما قلنا — بأوضاع هذه الدول ومصالحها وأطماعهـا ومخاوفها . ولا يمكن أن يُحقّق على وجهه الصحيح إلا بتبديل عميق شامل ، ولذا فهو يدخل في نطاق الحل الاساسي لقضية فلسطين ، بل للقضية العربية بكاملها ، الذي سنتناوله في الفصل التالي .

غير أنه ، بانتظار هذا الحلّ الاساسي ، وهذه المعالجة المديدة الافق ، لا بُدّ من اتخاذ كل إجراء ممكن لتأمين أوفر ما يستطاع من التنسيق والتوحيد بين جهود الدول العربية . ولا أظن احداً من العرب أعطي شيئاً من الملاحظة والتفكير كان يؤخذ بأقوال ساستنا وتصريحاتهم عقب اجتماعات اللجنة السياسية أن الدول العربية لم تكن في وقت من الاوقات أكثر اتفاقاً مما هي عليه الآن ، وأن الجامعة العربية لم تكن يوماً أقوى مما هي في هذا الظرف العصيب . بل قد يخيل إلى المرء ان كثرة هذه التصريحات نفسها دليل على ضعف وانقسام يخشى ذيوعه ويراد إخفاؤه ، وأن الجامعة لم تصبح بعد من القوة والبأس بحيث تستطيع أن تفرض على أعضائها اتحاداً مكيناً في الرأي والعمل .

كم مرة اجتمع أركان حرب هذه الدول في خلال هذه المعركة ؟ وفي خلال هدنة الاسابيع الأربعة التي نمنا نحن فيها على فراش وثير بينما العدو يسعى وينظم ليلَ نهار ، تُرى هل حزمت قياداتنا الحربية أمرها ، ونظمت جهدها ، واتفقت على خططها في العمل ؟ أليس من أدل دلائل الضعف أننا كنا نسمع كل يوم أربعة أو خمسة بلاغات حربية ، بدلاً من بلاغ حربي واحد ؟ أليس من الضروري أن تتوحد نظم الجيوش العربية ، وأسلحتها ، بحيث يمكن للجندي العربي ان يخدم في أيّ جيش من الجيوش العربية بحسب الحاجة ؟

وفي ميدان السياسة : أليس بالامكان إيجاد أداة للتنسيق والتوحيد أخفّ وأكثر فعالية من اللجنة السياسية ، المؤلفة في أكثرها من رؤساء حكومات الدول العربية ، يهرعون اليها بين آن وآخر ، وعلى كل منهم أعباء وهموم ثقيلة تشده إلى بلده ؟ أليس بالامكان إيجاد هيئة دائمة ثابتة في مكان واحد يوكل اليها تنظيم الجهد ومتابعته على ضوء سياسة واحدة تضعها الحكومات ؟

أما في ميدان الاقتصاد : فان اللجنة الاقتصادية للجامعة ، التي كان يفرض فيها أن تكون في هذا الظرف العصيب ، أداة التنظيم والتنسيق في الحرب الاقتصادية والمالية ، فاننا لم نسمع لها صوتاً ، ولا أحد يدري ما إذا كانت قد تشكلت وظهرت إلى حيز الوجود ، أم لا تزال في سجلات الجامعة ومقرراتها .

وكذلك الامر في ميدان الدعاية . وفي هذا الميدان ، قبل غيره ، كان مفروضاً أن يُحقق الاتفاق والاتحاد ، لانه المظهر الاول لجهد الدول العربية ، والدليل الخارجي على عزيمتها ومتانة قصدها . ولكن الواقع كان على عكس ذلك تماماً . فللهيئة العربية العليا وفودها ، وللمكتب العربي فروعه ، وقد وُجد ممثلو هاتين المنظمتين فعلاً في وقت واحد في نيويورك ولندن في أدق مراحل القضية ، فلم يجتمع لهم جهد ، بل كانوا على العكس في تباعد وتنافر وتنافس . ولا ينكر أن أفراد هذه الوفود وسواها من التي أرسلت

إلى البلدان الاخرى بذلوا أقصى مـا يمكنهم من جهد ، ولكن انعدام الوحدة وتعـدد السلطات وضياع المسؤولية كانت في النهاية تشل عملهم وتبطله ، بـل تأتي بعكس المطلوب منه .

قلت : إن هـذا التوحيد المنشود في ميادين الحرب والسياسة والاقتصاد والدعاية وسواها مقيد بظروف الدول العربية ووضعها الحاضر ، وإنه لا يمكن أن يرتفـع فوق مستوى هذا الوضع . فهو الاثر والثمرة ، والكيان العربي القائم هو الاصل والعامل . على انّ الخطر قوي مداهم : لا يمكن معه انتظار الانقلاب الاساسي في الوضـع العربي لتأمين تلك الوحدة الاصليـة الضرورية لحفظ الكيان ودفع البلاء . ولذا كان على ذوي السلطان وحمـلة التبعات في الدول العربية أن يضعوا الغرض العام قبل الاغراض الخاصة ، وكان على الرأي العام في شتى أقطار العرب أن يلح في المطالبة بالتنسيق والتوحيد ، وأن يضغط ما وسعه الضغط في هذه السبيل ، وأن يثور على كل انقسام في الجبهـة العربية ، كي يذلّل ما أمكن العقباتِ القائمة اليوم في وجه التضامن العربي ويحمي كيان العرب في هذه المعركة .

*

وثمة ركن رابع للجهاد العربي الحاضر : هو إشراك القوى الشعبية في النضال . فالجهاد يجب ان لا يقتصر على الحكومات وعلى الجيوش النظامية ، بـل يجب ان يسري الى عموم

طبقات الشعب ، بحيث يقوم كل فرد من افراد الامـة بقسطه منه .

سيقال : ولكن الحرب الحديثة غير الحرب القديمة ، وهي تطلب من اساليب التدرب والتمرس على استخدام ادوات القتال الميكانيكية ما يعجز عنه المقاتل غير النظامي ، وان مثل هذا المقاتل قد يعيق في احيان كثيرة العملَ الحربي بدلاً من ان يساعده ويقوّيه .

على ان اختبار الامم في الحرب العالمية الاخيرة التي استخدمت فيها أشد أنواع الاسلحة واكثرها ضخامة وتعقيداً دلّ على ان القوى الشعبية ، إذا أحسن تنظيمها ، تستطيع أن تكون للجيوش النظامية سنداً قوياً ، بل أن تأتي في بعض الاحيان بالضربة الفاصلة . هذا ما اثبته النضال الشعبي في بولونيا ، وروسيا ، والبلقان ، وفرنسا ، وغيرهـا من الدول الكبرى والصغرى . لقد اثبت أن تعلق الشعب بوطنه وتمسكه بارض آبائه واجداده ، ودفاعه عن اسرته وشرفه — كل ذلك يبعث فيه من الشجاعـة والتضحية والاستماتة ما يعوض عن التدرب الموفور للجيوش النظامية ، بل ما يقوي روح المقاومة في هذه الجيوش ، وفي الامة بكاملها .

ولماذا نذهب بعيداً ، والعدو امامنـا يعطينا على ذلك أفضل دليل وأسطع برهان ؟ ترى ، هل اقتصر هـذا العدو في نضاله على جيوش نظامية ، أم أشاع هـذا النضالَ في الشعب الصهيوني بكامـله : في رجاله ونسائه ، في مختلف

جواليه ومستعمراته ، فكان الفرد منهم يشعر انه خلية من خلايا الجسم المناضل ويدافع ويهاجم بكل ما فيه من قوة وحياة ؟ وإذا كانت هذه حال المغتصب ، فكيف تكون حال المعتدى عليه المدافع عن ارضه ودمه وعرضه ؟

وسيقال : لقد اثبت الشعب العربي في فلسطين ضعفه وعجزه . فما ان اطلقت القنابل الاولى عليه حتى انهزم شرّ هزيمة ، وجلا عن مدنه ومراكزه وسلمها لقمة سائغة للعدو ، بل ان جزءاً كبيراً منه انهزم قبل المعركة واحتمى بالبلاد العربية الاخرى ، وبالمناطق النائية من فلسطين .

ولست انكر انه قد ظهر في الجسم العربي ، في فلسطين وسواها ، جبن وتفسخ. ولكن هذه التهمة الشاملة فاسدة في اساسها يردها تاريخ هذا الشعب بكامله ، وما يتحلى به من شجاعة طبيعية ومن جرأة وتضحية في القتال . ويردها كذلك ما قام به هذا الشعب خلال الثلاثين السنة الاخيرة في ثوراته المتتابعة على السلطة الغاصبة وفي مهاجمته للصهيونية . ويرد هذه التهمة ايضاً ما بذله ابناء قراه ودساكره من اموالهم ومواردهم في شراء الاسلحة والذخائر باعلى الاسعار للدفاع عن كيانهم ، وما اظهروا من جرأة ، وما احرزوا من فوز في جيوش الانقاذ ، وفي الجهاد المقدس ، وحيثما تم لهم قسط من القيادة والتنظيم .

كلا ! لم تكن العلة في الشعب نفسه ، بل في قادته الذين لم يدربوه ، ولم يسلحوه ، بل لم ييسروا له سبل التسلح ، ولم يدلوه على طريق العمل وسبيل الجهاد . أليس

بين الوف الشباب العربي ، المتعلم وغير المتعلم ، قلة يمكن تهيئتها لهذا النضال الشعبي ، وجعلها خميرة لسريان روح هذا النضال في مجموع الامة ؟ أليس من بوادر الخذلان الشائن ان يلتفت فريق كبير من الشباب المتعلم في البلاد العربية حوله ، ويبحث عن منحى يقوم فيه بنصيبه من الجهاد فلا يجده ؟ أليس من الضعف والهزيمة ان تكون ابواب التطوع مقفلة أو ضيقة إلى أبعد حدود الضيق ؟

ألا فليحذر اولئك الذين يتهمون الشعب ويعرضون عن النضال الشعبي . فهم بذلك يخسرون عنصراً أساسياً من عناصر الجهاد ، بل يكبتون روح النضال في صميمها . على ان هذه الروح ، وان اضعفت حيناً ، فلا بُد لها يوماً من ان تهب ، وقد تثور على قامعيها اولاً ، ثم تنطلق في جوانب الامة جميعاً ، لتجعل الجهاد لحفظ الكيان وحماية الوطن جهاداً شاملاً بالمعنى الصحيح .

*

ومن اركان الجهاد العربي الحاضر لحفظ فلسطين استعداد العرب للمساومة ، وللتضحية ببعض المصالح لدرء الخطر الاكبر . فمن الضروري أن نشعر اننا لم نبلغ بعد من القوة والسلطان درجة تسمح لنا بنيل مطالبنا وتأمين مصالحنا كلها دفعة واحدة ، واننا مضطرون للتضحية باشياء في سبيل غيرها ، وان للدول الكبرى في بلادنا مصالح هامة يمكننا أن نساوم عليها لبلوغ غاياتنا . فلم يعد بالامكان في هذا

العصر الذي تشابكت فيه حياة الدول ، ان تحل اية ام مشاكلها بالاستقلال عن الامم الاخرى ، ودون تبادل في المصالح والمنافع .

على ان لهذا التبادل شروطاً إذا لم تحقق ، لم يأتِ بالفائدة المطلوبة ، بل انقلب شراً ومضرة . من هذه الشروط ان لا يكون قائماً على العاطفة و« الصداقة التقليدية » و« المحالفة الطبيعية » ، فهذه كلها لا تعدو في اكثر الاحيان أن تكون أشراكاً واحابيل لاخفاء الاطماع وتغطية الاستغلال والاستثمار . والاساس الوحيد لهذا التبادل في دنيا المعاملات الدولية الحاضرة هو المصلحة ، والمصلحة لا غير . ولذا كان من شروطه ايضاً أن يُقبض ثمن كل تنازل عن مصلحة بتأمين مصلحة مقابلة . فلا نخالف مثلاً الدول الدمقراطية على الشيوعية ، ونضطهد الاحزاب اليسارية في بلادنا ، لوجه الله وجرياً مع الصداقة ، او لمجرد التخاذل . وكذلك يجب ان يستهدف هذا التبادل مصلحة الامة بكاملها ، لا مصلحة فرد أو افراد أو طبقة منها . فلا يكون هؤلاء حلفاء — واعين أو غير واعين — للغير على عامة الشعب . واخيراً يجب ان تنظم مصالح الامة في مراتب بحسب خطورتها ، فيضحّى بالقليل في سبيل الكثير ، وبالزائل من اجل الباقي .

ولا مراء في ان مصلحة العرب الاولى في هذا الطور من تاريخهم هي في حفظ كيانهم من الخطر الصهيوني . وعلى

هذا كان مفروضاً عليهم — بسبب وضعهم الخاص والوضع الدولي العام — ان يضحوا بمصالح أخرى في هذا السبيل . غير ان عليهم كذلك أن يبذلوا هذه التضحية بوعي واحتراز وعلى الاسس التي بيّنا ، والا انقلبت هذه المساومة تفريطاً ، وجرت المنفعة من جهة واحدة فقط ، واضاع العرب مصالحهم تلك فوق مصلحتهم الكبرى في فلسطين .

ولا يعتقدنّ احدٌ ان هذه المساومة عمل هيّن . فانها تتطلب قيادة الامة على صراط ضيق ملتوٍ محاط بالمزالق والمهاوي . وتتطلب بصيرةً وحسن دراية وتفهماً للعقل الغربي ولمصالح الدول المتضاربة . ولكنها تتطلب قبل هذا كله اخلاصاً لمصلحة الامة ، وتضحية بالاغراض والاطماع الشخصية في سبيلها . هذه هي الصفات المطلوبة في رجل السياسة للقيام بهذه العملية الدقيقة الخطرة . بها يُقاس دهاؤه ، وتختبر اصالته . بها ترتفع سياسته عن معناها الضيق الحقير ، وتصبح اداة للبناء والخلق فما تدخل شيئاً إلاّ « اصلحته » . بها يستحق ان يحفظ له التاريخ ما حفظ للساسة البناة ، الساسة الحقيقيين ، من عز ومجد وفخار .

*

تلك هي ، في نظري ، الاركان الخمسة للجهاد الحاضر : الاحساس بالخطر وارادة الكفاح ، والتعبئة العامة ، والتوحيد بين جهود الدول العربية ، وإشراك القوى الشعبية ، والمساومة الدولية الواعية . هذه وسواها شروط أساسية

لنجاح مسعانا العاجل في ردّ الخطر الصهيوني وحفظ كياننا القائم منه . وهي ضرورية بسبب التحول الذي طرأ على المشروع الصهيوني ، وما أصابه من التقدم في الآونة الاخيرة .

فلقد دخلنا الحرب الحاضرة ، والذهنية المسيطرة علينا هي أن الحال لا تزال على ما كانت عليه سنة ١٩٣٩ وما قبلها ، وأن المظاهرات والمناوشات والهجمات المتفرقة هنا وهناك التي جرينا عليها في ثوراتنا على الدولة المنتدبة كافية في الحرب الحاضرة . وخفي علينا أن غاية هذه الجهود حينذاك كانت إزعاج الدولة المنتدبة وإضعاف هيبتها وخلخلة أسس حكمها ، والتأثير بذلك على الرأي العام فيها وفي العالم لتخفيف وطأتها ودفع الخطر الصهيوني القائم على حمايتها . ولما كانت السلطة البريطانية سلطة منتدبة ، وحكمها موقت ، نظرياً على الاقل ، ولما كانت قوتها العسكرية أقوى كثيراً مما يمكن أهل فلسطين حشده ، كان طبيعياً أن يتخذ جهادهم هذا النوع من الكفاح والثورة .

أما الآن فقد اختلفت الحال : لم يعد الجهاد موجهاً ضد دولة منتدبة بل ضد جماعة تؤمن بحقها في البلاد ، ويؤازرها في هذا الايمان فريق كبير من الرأي العام العالمي بفضل نفوذها وسيطرة دعايتها . وهي مستعدة لأن تلقي بجميع قواها في الميدان ، لأن المعركة عندها معركة موت أو حياة : العرب أمامها والبحر وراءها ، وإذا فشلت الآن

فسيقضى على حلمها وعلى الجهود البالغة التي بذلت لتحقيقه خلال السنين .

ثم إنها قد حرصت في السنوات الاخيرة على استكمال عدتها وتقوية جهازها ، وتحولت من جوالٍ متفرقة ضعيفة إلى قوة موحدة ، محكمة الربط ، شديدة المراس . فلم تعد تنفع معها المناوشات ، والهجمات المتفرقة ، والتجهيز الجزئي فحسب ، بل أصبحت الحاجة في كفاحها إلى حرب شاملة بالمعنى الحديث الذي أثبته الاختبار في الحربين العالميتين الماضيتين .

هذا التحول في وضع فلسطين والصهيونية يفرض علينا اتجاهاً جديداً في جهادنا الحاضر ، ويضطرنا إلى تحقيق الشروط التي ذكرناها آنفاً — بل إلى تبديل ذهنيتنا الكفاحية تبديلاً أساسياً — ليحقق جهادنا مطلوبه ، ويؤتي ثمره ، ولنكون حقاً أبناء الحاضر لا أبناء الماضي . وخاسرٌ دوماً من يحارب الحاضر بالغابر !

*

سيقول القارىء : كل هذا قد يكون صحيحاً جميلاً . ولكن ما شأنه في القضية القائمة الآن وفي الاسئلة الملحة التي تجابهنا ؟ أيستمر العرب في الهدنة التي فرضت عليهم فرضاً والتي تقوّي كل يوم جانب الصهيونيين عليهم ؟ أيقبل العرب بالتقسيم ، وقد تألبت اكثر قوى العالم لتنفيذه ؟ أيّ موقف تقفه الدول العربية من الامم المتحدة فيما اذا اصرت على تحقيق التقسيم بالقوة ؟

والجواب على هذه الاسئلة وسواها مما يثيره الوضع الحاضر موقوف على قوة العرب الحربية ، وعلى مقدرتهم في توجيه ضربة سريعة ساحقة . والآراء في هذا الموضوع متضاربة : بين مؤكد ان القوى العربية اعجز في الوقت الحاضر ، لاسباب مختلفة ، عن أن تحقق هذا الامر ، وبين موقن ، من جهة أخرى ، من ان هذه القوى لو اطلق عنانها واحسن تنظيمها وتنسيقها لسحقت العدو في فترة قصيرة ، ووضعت العالم امام الامر الواقع . وعِلمُ ذلك عند الله والراسخين من قادة الدول العربية وخبرائها العسكريين . فلا مجال اذن لاي فرد ، خارج هذه الدائرة ، ان يحكم فيه . بل ان من الجرم ابداء اي رأي في هذا الامر الجلل ، الا اذا توافرت الادلة على صحته ، لما يترتب عليه من نتائج خطيرة لوضع فلسطين ووضع الدول العربية ذاتها .

ولكن سواء أضربنا هذه الضربة الساحقة ونجحنا فيها وتوصلنا الى اقامة دولة موحدة دمقراطية في فلسطين ، أم عجزنا عنها وفرض الصهيونيون والعالم علينا التقسيم ، فالكفاح يجب ان يظل قائماً . وان اسوأ ما يخشاه الناظر المحقق ان تخمد روح الكفاح هذه ، حتى في حال نجاحنا باقامة الدولة الموحدة ، فيسري خطر الصهيونية في جسمنا المهلهل السقيم سريان السرطان ، ونصحو يوماً فاذا بفلسطين كلها — حربياً ومالياً وروحياً — في يد الاقلية الصهيونية الناشطة المناضلة . كذلك في حالة فشلنا وتحقيق التقسيم ، سنصبح لا محالة فريسة سهلة لقوة

الصهيونية الامتدادية واطماعها الاكتساحية اذا نحن لم نواصل جهادنا ونراعِ بيقظة ودقة الشروطَ التي ذكرنا انها واجبة لنجاحه .

بل ان هذا الخطر الامتدادي الاكتساحي ماثل الآن ، وقبل نهاية المعركة ، فلنحذر من متابعة طريقنا السابقة الملتوية ، ولنجابه بكل ما اوتينا من عزم وما نستطيع ان نؤلب من قوى ، ولنوفِّ لجهادنا الحاضر شروطه الخمسة الأساسية ، فنبدأ بذلك طريق الخلاص الحقيقية .

ان عِظَمَ المجهود مقيسٌ بعظم الغاية !

الحلّ الاساسي

•

إن الجهاد الحاضر الذى وصفناه وأبنّا أركانه وشروطه واجب للمعركة القائمة الآن . غـير ان محاربة الصهيونية لاستئصال جذورها والتغلب التام عليها لا تتم في معركة واحدة ، بل تتطلب حرباً مديدة الافق بعيدة الاجـل . ولنسارع الى القول – بكل صراحة واخلاص – إن هذه الحرب لن تؤدي الى نصر العرب ما داموا في وضعهم الحاضر ، وان جُلّ ما يستطيعون تحقيقه في هـذا الوضع هو انقاء شر الصهيونية الآنيّ وحماية مـا يمكن حمايته من الكيان العربي . اما الغلبة التامة النهائية على هذا الشر ،

فسبيلها غير هذا : سبيلها تبدل اساسي في الوضع العربي ، وانقلاب تام في أساليب تفكيرنا وعملنا وحياتنا بكاملها .

ان ما أحرزه الصهيونيون من نصر – ولن ينكر هذا النصر الا متغافلٌ متعامٍ – ليس مردّه تفوق قوم على قوم ، بل تميز نظام على نظام . سببه ان جذور الصهيونية متأصلة في الحياة الغربية الحديثة ، بينما اننا نحن لا نزال في الاغلب بعيدين عن هذه الحياة متنكرين لها . سببه أنهم يعيشون في الحاضر وللمستقبل ، في حين اننا لا نزال نحلم أحلام الماضي ونخدّر أنفسنا بمجده الغابر .

الخطر الصهيوني ، بل كل خطر اعتدائي علينا ، لا يرده الا كيان عربي قومي متحد تقدمي . فانشاء هـذا الكيان هو الركن الاول للجهـاد العربي البعيد ، ولا يتم – كما قلت – الا بانقلاب أساسي في الحياة العربية . ومن هنا كان الجهاد الخارجي لدفع الاخطار الاعتدائية مربوطاً بالجهاد الداخلي لاقامـة الكيان العربي السليم ، بل مَوقوفاً عليه ومرهوناً بنجاحه .

تُرى ، أيحق لنا أن نقول ان ثمّ وطناً عربياً ؟ اذا عنينا بالوطن الجبال والانهار ، والسهول والشواطىء ، فهو موجود بـلا شك ، منذ أن نزل العرب ديارهم الحاضرة . أما اذا عنينا به – كما هو الواجب والصحيح – تغلغُل معنى الوطن في الذهن العربي ، وتولد الارادة لحمايته واعلاء شأنه واطراد تقدمه ، فلا !

وسؤال آخر : هل ثمت امة عربية ؟ اذا اردنا بذلك شعوباً تتكلم اللغة العربية وتنطوي على امكانيات لتحقيق هـذه الامة ، فالجواب بالايجاب . أما اذا اردنا بهذا اللفظ – كما هو الواجب والصحيح – امةً موحدة المنازع ، محققة الامكانيات ، تتوجه للمستقبل ، وتفتح عينها للنور ، وصدرها للخير ، أنى كان مصدرهما ، فلا !

الصهيونيون لم يكن لهم وطن قائم بالمعنى الطبيعي الاول ، فنسجوا من تاريخهم القديم ومن آلامهم الحاضرة وآمالهم للمستقبل حلماً وعمدوا الى تحقيقه في ارض غير ارضهم ، وقطعوا في هذا التحقيق شوطاً غير قصير ، سلاحهم في ذلك تغلغل هذا الحلم وارادة تحقيقه في صميم حياتهم ، واتحادهم في هذه الارادة ، وتأصّل نفوسهم في الحياة الغربية الحديثة ، واستعدادها لكل تقدم وتوثب .

ليس لهؤلاء الصهيونيين مزايا الامة الموحدة . فهم من بلاد متباعدة ، يتكلمون لغات مختلفة ، وينهجون مناهج متباينة ، لا تربطهم الاّ رابطة الدين والالم . ومع ذلك فقد وحّدتهم الفكرة ، وشحذت هممهم ، وخلقت فيهم الارادة الحاسمة للنضال . فكادوا يحققون – بهذه الارادة ، وباقبالهم المطلق على الحضارة الحديثة – ما ليس طبيعياً ، بينما ان الطبيعي عند العرب – ان يكوّنوا امة – لا يزال غير محقق . وهنا الفارق الفاصل !

ان ارادة البقاء والكفاح لا تُصَدّ إلاّ بارادة مثلها

أو أقوى منها . ووحدة الولاء لا تُقهر إلا بوحدة اتم وولاء اشد . والنظام القائم على المدنية الحديثة لا يُغلب الاّ بنظام أوسع اخذاً لهذه المدنية واوفر تسلحاً بقواها . والذهنية المتطورة المتوثبة لن تقف امامها ذهنية بدائية راكدة .

وبالاجمال نكرر : ان الخطر الصهيوني ، بل كل خطر اجنبي ، لا يُدفع الاّ بكيان عربي متحد محقق لهذه الصفات ، ومثل هذا الكيان لا يتأتى للعرب إلاّ بانقلاب اساسي في نظم عيشهم . فالى تفهم حقيقة هذا الكيان ، والى تلمس سبل ايجاده ، يجب ان تنصرف اذهان المفكرين والعاملين في البلاد العربية ، الراغبين في حل القضية الصهيونية ، بل القضية العربية بكاملها ، حلاً اساسياً ناجعاً .

*

فما هي ، اذن ، صفات هذا الكيان العربي الذي يجب تحقيقه ؟

اولى هذه الصفات الاتحاد : اي ان ينتظم العرب في دولة اتحادية توحّد فيها سياستهم الخارجية والاقتصادية ، وقواهم الدفاعية . فان خمس دول ، او ستاً ، او سبعاً ، مستقلة الواحدة عن الاخرى استقلالاً تاماً – فيما عدا هذه الرابطة الضعيفة التي تمثلها الجامعة – مهتمة كل منها بشؤونها ومصالحها الداخلية ، واقعة تحت تأثيرات اجنبية مختلفة وسلطات داخلية ذات مصالح متضاربة – ان دولاً هذا شأنها لا تستطيع دفع عوادي هذا الزمن الجارفة . واذا كان الاتحاد المنشود

غاية قومية يستلزمها ما بين العرب من روابط لغوية وتاريخية ومصلحية ، فان الخطر الصهيوني قد جعلها شرطاً للبقـــاء ، ومستلزماً للحياة نفسها . لان هذا الخطر ، مضافاً اليه الاخطار الاجنبية الاخرى ، كفيل بان يندس بين هذه الدول ، ويدق في جوانبها الاسافين ، فيقوي الاختلاف ، ويزيـــد المصالح المفرقة تباعـــداً وتناقضاً ، والبناء العربي خلخلة وتصدعاً . والعصي ما دامت منفرطة او مربوطة بخيط هزيـــل ، فمن اليسير ان تكسّر الواحـــدة تلو الاخرى . ولا يسلمها من العطب ، الا شدّ وثاقها بحيث لا تنفرط ، بل تواجه كل ضربة متحدةً قوية ، فتردها خاسئة خاسرة .

على ان هذا الاتحاد وحده لا يكفي . بل هو نفسه لا يتم اذا لم يتحقق للعرب شرط آخر أساسي : هـو التطور الاقتصادي والاجتماعي والفكري . ولذلك وصفنا الكيان العربي القومي المتحد المنشود بأنه أيضاً تقدمي * .

وقد أصبح من الضروري لنا أن نعلم ـ بعد أن غدت

* يخشى بعض القوميين استعمال عبارات « التقدمية » و« الانقلابية » وأمثالهما لكثرة ما يرددها الشيوعيون ، كأنها وقف عليهم وحدهم . على اني لست أعني بها هنا الثورة الطبقية أو سواها من معـــاني النظرية الشيوعية . وقد آن الوقت الذى يجب أن تعلم به فئاتنـــا المتحفزة للتحرر ، ان التقدم والتوثب لتحقيق الحرية ، والثورة على الرجعية والاستغلال ليست من احتكار الشيوعية ، كما ان قوميينا يجب أن يدركوا ان اكبر خطر على قوميتنا هو الرجعية بشتى مظاهرها ، وانهم اذا ارادوا ان يحاربوا الشيوعية حقاً فسبيلهم الوحيد ان تكون قوميتهم مجارية لقوى الزمان ، مكافحة لمقيدات الماضي ، ثائرة على كل استغلال متلمسة سبل التقدم أنى كانت .

القومية عندنا لفظة سهلة تدور على كل لسان ـ ان التكون القومي لم يظهر في الغرب ، ولن يظهر في أية بقعة من بقاع الارض ، اذا لم تتوفر له شروط اقتصادية واجتماعية وفكرية معينة . فهو لم ينشأ الا على أنقاض الاقطاعيـــة ـ بلهَ القبلية ـ والطائفية والجبرية والغيبية . لم يقم الا عندما دخلت الآلة فقلبت النظام البدائي الراكد المتفرق في الاقتصاد والعيش إلى نظـــام متطور اختصاصي متشابك ، وعندما خُفضت الحواجز المنيعة القائمة بين طبقات الشعب ، وسرى العلم المنطقي المنظم فضبط نوازع الخيـــال ومجاري الفكر وحوّل العقلية البسيطة الساذجة إلى عقلية واعيـــة متفتحة مركبة .

فالذين يعملون اليوم لانشاء قومية عربية واتحاد عربي على أساس الوضع الاجتماعي الحاضر يحاولون عبثاً ، لان جهودهم لا تماشي مجرى التاريخ وقوانـــين الاجتماع . ولن تثمر هذه الجهود إلا إذا ارتبط الجهاد للاتحاد بجهاد للانقلاب الداخلي وبُني على اساسه . فالقومية والاتحـــاد القومي اللذان قاما في عصر معين ـ هو العصر الحديث ـ وما يمثله من تطور في الفكر والعمـــل ، لا يلتئمان بشكل من الاشكال مع نظم القرون القديمة والوسطى وعقليتها .

هذا التطور بل ـ في حالتنا نحن ـ الانقلاب ، شرط لازم اذن لبناء كياننا المنتظر . والصفات الثلاث التي اطلقناها على هذا الكيان: «قومي متحد تقدمي» ، مرتبطة بعضها ببعض ارتباطاً وثيقاً ، لا تقوم

الواحدة منها الاّ بالاخرى . وهذه التقدمية الواجبة للبناء القومي هي ، في الوقت نفسه ، سلاح لا بُدّ منه لمجابهة الخطر الصهيوني وسواه من الاخطار الاعتدائية . وبهذا السلاح – كما ذكرنا آنفاً – تغلب علينا الصهيونيون في هذه المرحلة من كفاحنا ، وسيظلون يتغلبون ما دمنا عنه معرضين .

*

فما هي عناصر هذه التقدمية ، وما هي غايات الانقلاب المنشود؟

ليس هنا مجال التفصيل في هذا الموضوع ، ومقابلة ما عليه وضعنا الحاضر بما يجب ان نكون . وانما نوجز فنقول إن غايات هذا الانقلاب تجتمع اخيراً في غاية واحدة واضحة . هي ان نصبح بالفعل وبالروح ، لا بالاسم والجسم فقط ، قسماً من العالم الذي نعيش فيه ، نجاريه في نظم العيش والفكر ، ونتكلم لغته ، ونتصل باصوله ، ونضم مقدراتنا الى مقدراته . ولبلوغ هذه الغاية يجب ان نتخذ خطى عديدة تقلب حياتنا من اوضاع العصور الوسطى والقديمة الى وضع العصر الحديث.

واهم هذه الخطى ، في نظري ، هي التالية ، اعدّدها تاركاً استقصاء بحثها وتفصيله الى مناسبة أخرى :

اولاً : اقتباس الآلة واستخدامها في استثمار مواردنا على اوسع نطاق ممكن. والآلة هي في مقدمة العوامل التي احدثت في الغرب ذلك الانقلاب الذي ادّى الى نظام الحياة الحديثة . وادخالها في حياتنا الحاضرة ، وما ينتج عنه من « تصنيع » لهذه الحياة ، كفيل الى حدّ بعيد بتهديم القبلية

والاقطاعية وسواهما من النظم القائمة في وجه القومية .

ثانياً : فصل الدولة عن التنظيم الديني فصلاً مطلقاً ، فان الفكرة القومية منافية للثيوقراطية الحرفية . وكل دولة في الغرب إنما حققت من التماسك القومي بقدر ما استأصلت من جذور الطائفية ونظمت حياتها على أساس آخر ما توصل اليه العقل المتفتح والفكر المتراكم .

ثالثاً : تدريب العقل وتنظيمه بالاقبال على العلوم الوضعية والتجريبية ، وتوجيه الجهد الثقافي في الامة إلى تحقيق أكبر قدر من هذا الانتظام العلمي ، والابتعاد ما أمكن عن الخيال المخدّر والرومانطيقية المائعة ، الضائعة المضيعة . فليس كالعقل المنتظم أداةً لاستئصال الباطل وتركيز حياة الامة على أسس سليمة .

رابعاً : – وعلى وجه الاجمال – فتحُ الصدر واسعاً لاكتساب خير ما حققته الحضارات الانسانية من قيم عقلية وروحية أثبت صحتها الاختبار الانساني الجاهد – فكراً وعملاً – لبناء الحضارة . فانشاء الدول لا يقوم على اكتساب الادوات المادية والعقلية وحسن استخدامها فحسب ، بل على متانة في الخلق ، وعمق في الايمان ، وصبر على المكاره ، وانطلاق الى الخير : وهذه كلها لا تتحقق الا اذا ثبّتت الامة جذورها في القيم الاساسية التي كشف عنها الجهاد الانساني خلال العصور .

هذه ، عندي ، هي الصفات الاساسية للتقدمية المنشودة

وللانقلاب المرغوب فيه لحياتنا الحاضرة . وقد ينظر البعض الى هذا الرأي شزراً ، ويظنون أن في هذا الالحاح على اقتباس المدنية الحديثة ، بماديتها وروحيتها ، خروجاً على تاريخنا وإضاعة لتقاليدنا القومية . والواقع ان من تقاليدنا ما هو زائل ، وهذا سيتهدم وينهزم امام قوى الحضارة الحديثة ، سواء أشئنا أم أبينا . اما الصحيح الباقي ، الموافق لهذا الزمان ، بل لكل زمان ، فهذا لا نستطيع ان نكتشفه ونفصله عن الفاسد الزائل ، ونتمثله في حياتنا الحاضرة تمثلاً تاماً محيياً ، الا بفعل العقل المتحرر المنتظم الذي يجب ان نقتبسه من المدنية الحديثة ونبني انقلابنا على اساسه .

ومهما يكن من أمر ، فليطمئن المشككون ! اذ لن تستطيع هذه التقدمية ان تودي بنا الى شر مما نحن عليه . فلقد انتهى وضعنا الحاضر ، لدى الهزة التي اصابته من النضال الصهيوني ، إلى افلاس مادي ومعنوي فاجع . ولم تغننا تقاليدنا في هذا النضال فتيلا . بل وجدنا ان عدونا — بالرغم مما اكتسب واختزن من الحضارة الحديثة ، بل بفضل هذا الاختزان — يفوقنا في شدة الايمان ، ووحدة الولاء ، والتمسك بالقوم والارض والوطن ، مثلما يفوقنا في الاسلحة الحربية والادوات المادية . فلا خوف إذن علينا من هذه التقدمية القومية ، بل الخوف كل الخوف من الانقباض عنها والتنكر لها والاختناق في أصدافنا الصلبة الموروثة .

*

بقي سؤال واحد وأخير : ما السبيل الى هذا الانقلاب الشامل المحقق للتقدم القومي على أبلغ وجه وأوسع نطاق ؟

هنالك سبل ممهدة لهذا الانقلاب ومساعدة له ، منها : تشجيع الجهد الوطني في استغلال موارد البلاد ، ونشر العلم والثقافة بشتى الوسائل ، وتوسيع مدى الحريات السياسية والاجتماعية والفكرية ، واصلاح سبل الادارة ، وما إلى ذلك من وسائل التطور والتقدم .

غير ان هذه الوسائل ، على ما لها من الاثر البعيد في الانقلاب المنشود ، محدودة من وجهتين : الاولى انها بطيئة العمل ، تحتاج الى جهد مديد ووقت طويل لكي تُحدِث التبديل الاساسي المرجوّ لوضعنا الحاضر . ونحن في حال لا نستطيع معها أن نفسح للوقت مداه ، وان نطلق للجهد حريته ليقوم بعمله على مهل وراحة . الاخطار الخارجية والداخلية التي تهدد كياننا لا تسمح لنا بانتظار التطور والتدرج ، بل تفرض علينا الوثب والانقلاب ، اذا اردنا السلامة وآثرنا البقاء . ثم ان هذه الوسائل المذكورة تحتاج الى من يوجدها ويقويها ويعممها : الى صَنَعَة مخلصين قادرين ، وقادة مبدعين . فهي ، من جهتها ، تساعد على وجود هؤلاء القادة ، ولكن هؤلاء ، متى وجدوا ، هم الذين يضبطونها ويوجهونها لتعزيز نتائجها وتعزيز اثرها في إحداث التبديل الاساسي المطلوب .

ان عوامل التقدم ، كجميع قوى الحياة ، متداخلة

متشابكة ، فالسبب يُحدث نتيجة ، وهذه بدورها قد تصبح سبباً وتفعل في السبب الاول تقوية وتدعيما . وليس من عاقل يود ان يُبطل الوسائل التطورية التي ذكرناها – كنشر العلم وما اليه – ولكن لا شك في ان نقطة الانطلاق في ما يجب ان نسعى اليه اليوم من تبديل وانقلاب إنما هي في القادة والصَنَعة ، في الفئة المختارة المبدعة التي تستطيع ان تقبض على هذه الوسائل وتدفعها دفعاً في السبيل الوحيدة المطلوبة .

هذه الفئة المختارة التي ستُلقى على عاتقها هذه المهمة الخطيرة – بل التي ستأخذ هي هذه المهمة وتقتنصها اقتناصاً – يجب ان تكون قد حققت في نفسها التقدم والانقلاب اللذين تسعى اليهما في المجتمع . فالذي يعمل عن شهوة لا عن ايمان لا يستطيع ان يبث الايمان في الامة ، مهما علا صوته وزخرف قوله . والذي لم يحرر نفسه بل ظلّ عبداً لنوازعه واطماعه لا يمكنه أن يحرر الغير ، مهما ارتفع مركزه وعظمت سلطته . والذي يخيم الظلام على عقله ويعشش عنكبوت التعصب والرجعية في زوايا دماغه لن يتأتى له ان يبث النور في امته ، وأن ينشر التسامح والتضامن والوحدة في مجتمعه ، مهما تظاهر بهذا اللون واكتسى هذا الكساء .

ولذا فالشرط الاول لنجاح العمل التقدمي الانقلابي ان يكون قادته واربابه تقدميين في انفسهم ، انقلابيين في

صميمهم . فعلى كل من يتصدى لهذه المهمة الخطيرة ، ان يزن نفسه بهذا الميزان ، ويقدرها هذا القدر ، وعلى الشعب عامة – والمثقفين المتحررين منه خاصة – ان يحكموا قادتهم بهذا المحك ، فمن خلص معدنه كان حرياً بالقيادة ، ومن ثبت زغله حُكم عليه ونال جزاءه .

ومن متممات وجود هذه الفئة المختارة ان تنتظم وتتحد في احزاب ومنظمات محكمة تقوم على عقيدة صافية موحدة ، وترتبط بولاء صحيح متين تُخضع كافة نزعاتها له وتدين به عن رضى واختيار . وان نظرة واحدة الى تاريخ النهضات في العالم لتدلّ باجلى بيان على ان اجتماع قوى هذه الفئات المناضلة في هذه المؤسسات الحزبية وسواها كان اكبر عامل في احداث النهضة وقلب الاوضاع .

ومن متممات وجود هذه الفئة كذلك ان تُبرز الى الوجود الزعامة الحقيقية ، وان تولد اولئك الافراد الذين يبنون الدول ويخلقون الامم ويصنعون التاريخ . اولئك الذين تمتد جذورهم عميقة الى حياة الشعب كما هي ، وترتفع انظارهم في الوقت نفسه الى ما يجب ان تكون ، وما يزالون يعملون ، بمساندة اخوانهم في العقيدة والولاء ، حتى يتم لهم او لمن بعدهم صوغ الحياة الجديدة وتعمير الكيان المتهدم . اولئك الذين يعيشون كل دقيقة من دقائق عمرهم تحت وطأة الضمير ، وفي رهبة من حكم التاريخ . اولئك المتصوفون – لا تصوف زهد واعراض ، بل تصوف إقبال واقدام –

الذين لا يسعون الى الرضى والسعادة ، بل تأتيهم السعادة والرضى في فناء ذواتهم بذات الوطن الكبرى . وبكلمة : اولئك الذين بدونهم ، وبدون امثالهم من المصلحين ، ما وجدت أمة ، ولا زهت حضارة ، ولا كان للحياة الانسانية اي طعم او معنى .

*

ان الكيان العربي القومي المتحد التقدمي الذي يتضمن ، كما قلنا ، الحلّ الاساسي لقضية فلسطين بل للقضية العربية كلها ، سيبقى حلماً وامكانية ، ما لم يتحقق اولا في نفوس الفئة المناضلة من ابناء الامة – وعلى رأسها الزعامة الحقيقية المتولدة منها – ثم في النظم التي تنتظم بها هذه الفئة ، والاحزاب والمؤسسات التي تنشئها .

وينظر أحدنا حوله فيجد ان نقطة الانطلاق هذه ما تزال ضعيفة ، وان الفئة المناضلة المطلوبة ما تزال قليلة متفرقة ، لم تتقوَ بعد بالنظر النير والجهاد الصاهر ، وقد تضافرت مناوءات الاستعمار والطبقات الحاكمة ومغرياتها على اضعافها وتشتيتها ، فكان لافرادها بعض الاثر ، ولكن لم يكن لها مجتمعة متحدة اثر ملموس أو عمل بيّن .

ويلتفت فتيان هذه الامم وشبانها ، فلا يجدون ضالتهم ، من جهة ، في الزعامات القائمة ، ولا تروي طموحهم المتوثب ، من جهة أخرى ، جهودُ الفئات القومية المتفرقة ، فيجتاحهم اليأس ، وتطغى على نفوسهم الحيرة : فاما ان ينتهوا إلى

الشك في ذات امتهم ، والقنوط من امكانيات شعبهم ، ويتبعوا الطريق المرسومة في ارضاء الشهوات والتهالك على المغريات ، واما ان يصبحوا طعما لاية حركة هدمية ، يجدون عزاءهم في الصخب والاضطراب لذاتها ومهما كانت نتيجتها . ولا ينجو من هذه الاخطار ويحافظ على ايمانه وعقيدته الا قلة من ذوي النفوس القوية والاعصاب المتينة . ولكن حتى هؤلاء في خطر من التفرق والضياع بعد نكبة فلسطين !

على انه مهما كان من امر ، ومهما كانت عليه فئاتنا المناضلة في هذه الايام من ضعف وتفرق ، فمما لا شك فيه ان منها نقطة الانطلاق ومبدأ الطريق ومبعث الرجاء .

*

هوذا مبدأ الطريق . اما اتجاهه ففي شحذ روح المقاومة والجهاد عند هذه الفئات المناضلة ، ودوام تفاعلها مع الشعب واحساسها بحاجاته ، وتتبعها لنهضات الامم الاخرى واكتسابها لاختباراتها ، وتمكين تآلفها وانتظامها ، وانصهارها في الولاء الواحد ، وتكرّسها المتجدد للغاية المرسومة – الى أن تصبح من القوة والاتحاد بحيث تحقق الكيان المرجو في ذاتها ، فتغدو بذلك اهلاً لان تحققه في مجتمعها .

إن الانقلاب الاساسي في وضعنا الحاضر ، الذي فيه حلّ قضية فلسطين والقضية العربية بمجموعها ، مرهون بمدى ما تقطعه فئاتنا المناضلة في هذه الطريق ، وبنوع الزعامة التي ستتولد منها في جهادها هذا . ولعل هذه الفئات ستجد ان

اول ما يتطلبه هذا الانقلاب انقلابٌ في ذاتها ، وذهنيتها ، وطرق تفكيرها وعملها . فالثورة ، ما لم تبدأ في النفس وعلى النفس ، لا يمكن ان تنتهي الى الغير أو أن يكون لها أي أثر في المجتمع . فلتنظر فئاتنا المناضلة في نفسها بهذا المنظار ، ولتحاسب نفسها هذا الحساب ، فالموقف فاصل ، والنتائج حاسمة ، وقوى الحياة لا ترحم .

وفي النهاية لن يصيبنا ، ولن نُصيب ، الا ما نستحق !

معنى النكبة

●

ان المتتبع لتاريخ الامم وتطور الحضارات ليلاحظ ان نشوءها وتقدمها منوطان بما يكتنفها من صعاب وشدائد . وليس صحيحاً ما يقوله البعض إن الحضارات ظهرت اولاً في بلاد خصبة الارض ، سهلة الموارد ، جيدة المناخ . فاليسر والسهولة لم يكونا يوماً من الايام سبيلاً الى النمو والتقدم . وانما نشأت الحضارات ونمت عندما جابهتها في محيطها الطبيعي او البشري مصاعب ومشاكل دعتها الى جهد الفكر وبذل النفس للتغلب عليها . فكان في هذا البذل والجهد سبب تقدمها وسبيل خلاصها .

وحالُ الامم في هذا حال الافراد . وكلنا يعلم ان الفتى الذي ييسر له ابواه جميع اسباب التعلم والعمل ، لا يصيب ما يصيبه الفتى المعوز المضطر من كسب ونجاح . ولهـذا نرى الأمر في الاغلب أجيالاً : جيلا يبني ويجمع بالجـد والنصب ، ثم يأتي من يتمتع ويتنعم ، ثم من يبذّر فيضيع .

فالمصاعب والشدائد – حتى النكبات – حافز إذن للافراد والجماعات ، وعلة من علل تنبهها ونهضتها . ولكنها ليست كذلك في جميع الاحوال . ففي بعضها تكون سبباً للتهدم والانهيار ، والتبدد والزوال .

الضربة التي توقظ الفتى الناشىء وتؤدي الى ردّ من جانبه عنيف قد تقضي على الشيخ الهرم المتداعي . والمشكلة التي تنبه العقل المتفتح وتزيده نشاطاً وفعالية قد تشلّ العقل المتفسخ المتراخي .

وكذلك عند الامم : فربّ أمـة تغلبت على ما في محيطها الطبيعي من عوائق وحواجز ، واخرى ارتدت عن مثل هذه العوائق عاجزة خاسرة . بل ان الامة نفسهـا تكون في دور من ادوار حياتها أقدر على تذليل عقبـة ما مما هي في دور آخر ، وتستطيع في بعض الاحوال ان تتلقى الهجمات والنكبات وتنهض اكثر قوة وحيوية ، بينما تنهزم ، أو تنعدم ، في حال اخرى . والتاريخ مليء بالشواهد على هذا كله .

يعتقد البعض ان هجمات البرابرة هي التي قضت عـلى

الدولة الرومانية . والواقع ان الامبراطورية الرومانية كانت قد تلقت قبل البرابرة صدمات أشد هولاً واعظم خطباً ، فصمدت لها وتغلبت عليها ، بل اكتسبت من عراكهـا قوة جديدة وعزماً أنفذ . ولكنها ، عنـد مجيء البرابرة ، كانت قد انحلت داخلياً ، فلم تقف امام هجماتهم . بل ان انحلالها ذاته هو الذي دعا البرابرة اليها ، وأطمعهم فيها .

وما زال بعضنا يؤمن بان غزوات الترك والتتر هي التي قضت عـلى الخلافة العباسية وعلى الملك العربي عمومـاً . ولكن الواقع هنا ايضاً هو ان العرب كانوا قد غُلبوا على امرهم داخلياً ، قبل أن يغلبهم التتر ، وانهم لو شنت عليهم تلك الغزوات وهم في دور تنبههم ونموهم لما طغت عليهم ، بل لعلها كانت ، بالعكس ، منشطة لهم ومجددة .

وهكذا الحال عند باقي الامم .

*

ان النكبة التي نزلت بنـا اليوم هي اذن محك لوضعنا الداخلي الحاضر . فاذا كانت عوامل الرجعية والانحلال هي المسيطرة علينا ، فان هـذه النكبة ستزيدنا ضعفاً وانحلالا وتفرقاً . اما اذا كان لعوامل التقدم والنمو بعض القوة – حتى لو لم تكن هي السائدة – فان الصدمـة العنيفة التي تلقيناها خليقة بأن تعزز هذه العوامل وتمشي بها قُدماً بمزيد همة وتراكم أثر .

وإنا كثيراً ما نتكلم عن نهضتنا العربية الحاضرة ونباهي

بها . هـــذه النهضة هي اليوم رهن التحقيق ، وفي نار المختبر : فاما أن تخرج بريئة خالصة ، وإما أن يظهر ضعفها وفسادها ، وطغيان قشورها على لبها ، وصخبها على صحيح عملها .

ولما كانت القوى المناضلة التقدميـــة هي التي تحمل في النهاية اعباء هـذه النهضة ، فان النكبة الحاضرة — بل كل صدمة تلقيناها في الماضي ، أو سنتلقاها في المستقبل — هي في الحقيقة اختبار لها ، وامتحان لمناعتها ومتانتها ، ولكفاءتها للعمل واهليتها للقيادة . وهذا الامتحان لا قيمة له ولا أثر اذا لم يكن المرء واعياً اياه ، بل اذا لم يصبح هو ذاتـه الممتحَنْ والممتحِن بوقت واحد .

فعلى كل عربي يضع نفسه في هذه المرتبة ان يتفحص حاله ويتبين قدره . على رجال الفكر ، وعلى المجاهدين في شتى مناحي العمل ، بل على كل متوثب متحفز لخدمة امته — على هؤلاء جميعاً ان يمتحنوا انفسهم ، فرادى وجماعات ، ليروا ما اذا كانت هذه النكبة قـد أضعفتهم وشتتتهم أو زادتهم عزيمة ومضاء واتحادا .

ليمتحنوا خلقهم ومقدرتهم على الصمود في وجه التعسف والاغراء .

ليختبروا عقيدتهم وولاءهم وقوتها ازاء المحن والخطوب .

ليتفحصوا تقدميتهم وانقلابيتهم وحدّتها وصلابتها امام ضغط الرجعية وحملاتها .

ليقيسوا تفتح اعينهم للنور ، وصـدورهم للتحرر بكل معانيه .

ليحاسبوا انفسهم ، ويثوروا على مواطن الضعف والتشتت فيها ، ويحتفظوا بعناصر القوة ويمكّنوها .

فان فعلوا ذلك ، خرجوا من هذه النكبة امضى عزيمة وأقوى اتحـــاداً ، وكان لامتهم رجاء في الحياة وعـــدة للمستقبل .

عندها ينقى ، بنار المحنة ، جوهرنا ويتبلور كياننا .

عندها ، وعندها فقط ، يكون للنكبة معنى ايجـــابي بنـــائي .

عندها ، وعندها فقط ، يخرج من العسر يسرٌ ، ومن الاضطراب عزمٌ وصفاء ، ومن النكبة بذور ظفر وانتصار !

ملحق

في مبادىء جهادنا في فلسطين

●

يجد القارىء في ما يلي فصلين كتبا في مناسبتين مختلفتين قبل النكبة ، حاولت ان ابيّن فيها المبادىء التي يرتكز عليها جهادنا في فلسطين . ويخيّل إليّ الآن ، وقد حدث ما حدث ، ان القارىء سيشعر لدى قراءتها بشيء من الفراغ في الفاظها ومعانيها ، وسيتساءل عما اذا كان يصح لنا ان نتحدث عن المبادىء ، بعد ان اثبت سير قضية فلسطين ان الكلمة العليا هي للقوة ، وان المصلحة طاغية طغياناً تاماً في

سياسات الدول وعلاقاتها بعضها ببعض .

سيقول ، ولا شك : آمنت بسمو المبادىء التي تقوم عليها قضيتنا ، ولكن ما نفع ذلك وغناؤه ؟ ماذا أفاد العربَ صحة هذه المبادىء وعدالتها ؟ أي أثر كان لها في القرارات التي اتخذتها اعلى المنظمات الدولية في هذه القضية ، وفي السياسات التي تتبعها الدول الكبرى والصغرى تجاهها ؟ هل ثمت ضمير دولي او عالمي يتأثر بالحق والمبدأ ، عندما تلوح المصلحة المادية ، او يفعل النفوذ فعله ، او تكشّر القوة عن انيابها ؟ لنُشِح بوجهنا إذن عن الكلام الطيب والمعنى الجميل ، ولننصرف بكل ما فينا الى التجهز المادي والى استجماع القوى وتعبئة الموارد للمضي في كفاحنا .

وما انا عن هذه الدعوة الى بعث قوانا وتجميعها بغريب . بل إذا كان ثمت مغزى لتحليلي ، في صلب هذا الكتاب ، لاسباب نكبتنا وسبل معالجتها ، فهو هذا بالضبط . هو تنمية روح الكفاح ، وتعبئة الموارد ، وتعميم الجهاد . هو استئصال جذور الضعف وبواعث التفرقة ، وتنقية جسم الامة من ادران الفساد والرجعية ليغدو سليماً قوياً مؤهلاً للبقاء والنمو ، متغلباً على نفسه قادراً بذلك على الصمود لسواه . هو الانبعاث القومي الشامل ، والتجدد التقدمي الدائم .

على ان هذه الدعوة الى التقوي والانبعاث لا تنافي تحرّي المبادىء واتباعها . بل إن الجهاد ليكتسب قوة اذا استند الى عقيدة ، وصدر عن ايمان ، وتعلق بمبادىء سامية وقيم

اصيلة . هكذا علّم التاريخ وأثبت اختبار الشعوب . فالقوة العارية الغاشمة كثيراً ما طغت في حياة الامم ، ولكن الى حين . والثورات التي نشدت الاستيلاء على السلطة فحسب ، لم تؤدِ الى غير الاضطراب والهدم . اما الثورات الحقيقية ، الثورات البانية المجددة ، فقد كانت تدعمها المبادىء ، وتسيرها الاحلام الجميلة والمثل العليا الساطية على أذهان القادة ، المحركة لنفوس الشعب .

فلا يضير جهادنا في فلسطين إذن ان يصدر عن مبادىء صحيحة ، ولا يضير انقلابنا القومي المنشود ان تدعو اليه عقيدة سليمة وترسمه احلام صادقة ومثل عليا مبدعة . انما الضير كل الضير ان نعتقد ان هذه او تلك قادرة على حفظ كياننا وتأمين تقدمنا ، اذا نحن لم نعقل جملنا ، ونحزم أمرنا ، ونعد لغدنا ما استطعنا من قوة .

وليست هذه القوة المنشودة في المال والسلاح والوسائل المادية وحدها . وانما هي ايضاً في عمق الايمان ، وشدة الولاء ، والاستعداد للتضحية ، والثبات في وجه التثبيط والاغراء . هي في قوة الخلق ، ومتانة العصب ، وسلامة النفس . هي في اتفاق الرأي ، واتحاد العمل ، وانصباب الجهد في السبيل المؤدية للغاية .

هذه القوة ، الخلقية الروحية ، الضرورية للنضال لا تتأتى للمرء أو للشعب اذا لم يتبين المبادىء التي يرتكز عليها نضاله ، والغايات التي يسعى الى تحقيقها ، وقيمة هذه الغايات

والمبادىء في ميزان الاختبار التاريخي والتقدم البشري .

ان من دلائل الفساد واختلال القيم والموازين في هـذا العصر – ذلـك الفساد الذي بدا واضحاً فاضحـاً في سير قضية فلسطين – ان يعمد رجل مهمته خدمة الفكر وغرس المبادىء في قلوب الناشئة الى ان « يُلحق » بحثه في المبادىء إلحاقاً بدلا من ان يضعه في المقدمة ، والى ان يضطر الى ان يبرر لنفسه ولقرائه ولوج هـذا البحث . ولكن ، ليُسجلّ لنا ، على الاقل ، اننا لم ننسَ هذه المبادىء ، ولنظلّ ، من جانبنا ، نعمل في تثبيت اصولنـا فيها ، وتقوية نفوسنا بما تبعث من عزيمة وايمان ، ولنحتفظ بها ونستند اليها ونستمد منها ونحن نجمع قوانا للكفاح الحاضر وللانقلاب القومي المنتظر .

هذا الذي اهاب بي الى ضم هذين الفصلين الى الرسالة ، آملاً أن تتسق فكرتها وفكرتها ، وأن يؤديا معا بعض ما ارجو في إعداد الفكر الصحيح والعمل المثمر لحل قضيتنا العاجلة والآجلة .

الصراع بين المبدأ والقوة
في قضيه فلسطين *

●

طلبت مني جريدة « العمل » الغراء ان اكتب مقالاً في القضية الفلسطينية ، فترددت لسببين : اولاً كثرة ما كتب في هذا الموضوع من نواحيه المختلفة ، وما توافينا به الصحف والمجلات والراديو يومياً من آراء الساسة والكتاب والمعلقين على الاخبار بما لم يعد يفتقر الى مزيد ، وثانياً ان هـذه القضية قد بلغت حداً لم تعد الحاجة فيه الى القول والجدل

* نشر في العدد الخاص بعيد الميلاد (١٩٤٧) من جريدة « العمل » – بيروت .

والمناقشة ، بل الى العمل السريع والتنفيذ الحاسم . غير اني عدت فلبيت الطلب ، آملاً ان يكون في ما سأقول بعض الفائدة في اثارة المشكلة والكشف عن أسسها .

ولما كانت ظواهر هذه المشكلة متعددة ، وتفاصيلها متشعبة ، وكانت هذه الظواهر والتفاصيل قد اخذت ، كما قلت ، بالبحث الواسع والشرح المستفيض ، رأيت ان خير ما يمكن عمله هو النفاذ الى الجوهر ورد الفروع الى الاصل . فالمشاكل لا تُفهم في حقيقتها إلا عندما ترد إلى اصولها ومبادئها . وقد كان من اثر الدعاية الصهيونية الهائلة ان حيك حول لب المشكلة الفلسطينية نسيج من الآراء المضللة ألهى الرأي العام العالمي عن حقيقة ذلك اللب ، فاصبح من العسير العودة اليه والوقوف على حقيقته . فلنعرّ هذه المشكلة إذن من ظواهرها واعراضها ، ولننفذ إلى الباطن والجوهر ، ماذا ترانا نجد ؟

نجد اننا امام قضية يتصارع فيها المبدأ من ناحية ، والقوة والمصلحة من ناحية ثانية . وعلى هذا فأثرها لا يقتصر على العرب والصهيونيين فحسب ، بل يتناول العالم اجمع . فهي محك لحيوية الضمير العالمي ، ولقوة التنظيم الدولي ، وهي دليل على الاتجاه الذي سيتبعه المجتمع الانساني : الى العدل والسلام او الى الظلم والحرب المستمرة .

المبدأ في هذه القضية هو حق كل شعب بالارض التي يعيش عليها ، والتي عاش عليها اجداده قروناً طويلة ،

والتي صبغها بدمه وعرك ترابها بعرق جبينه ، حقه في استثمار مواردها ، وفي ان ينشىء لنفسه عليها الكيان السياسي والاجتماعي والثقافي الذي يختار ، شرط ان لا ينتقص من حرية غيره من الشعوب وحقوقهم .

ولقد جاهدت البشرية قروناً عديدة في سبيل اقرار هذا الحق ، فأهرقت باسمه الدماء وبذلت من اجله الضحايا ، حتى كانت الحرب العالمية الاولى ، فأعلنه زعماء الامم الحليفة ، وخيل للعالم انه سيكون اساس التنظيم الدولي بعد تلك الحرب . ولكن هذا الخيال ما لبث ان تحطم على صخرة المصلحة ، وعادت القوة والتوازن الدولي يسيران دفة العالم . وكذلك كان الامر في الحرب الاخيرة : اعلان مبادىء سامية في ميثاق الاطلنتيك وسواه ، وتنظيم دولي جديد في الامم المتحدة ، ولكن القوة والمصلحة والتوازن الدولي لا تزال ، مع الاسف ، هي العوامل الفعالة في السياسة الدولية .

ونحن اذا راجعنا جميع القرارات والاجراءات التي اتخذت بشأن فلسطين وجدناها مناقضة لحق العرب الطبيعي ، وللمبدأ الاساسي في حق الشعوب بتقرير مصيرها ، هذا المبدأ الذي أعلنت الدول انها تحارب من اجله ، والذي بذلت باسمه الضحايا والنفوس بسخاء عجيب .

فوعد بلفور الذي اعطته انكلترا لليهود ، والذي يتخذه الصهيونيون أول حجر أساسي في دعواهم القانونية ، يخالف

كل المخالفة للمبدأ المذكور . إذ ليس من حق الانكليز ، بأي وجه من الوجوه ، أن يتصرفوا بارض ليست ارضهم وأن يقرروا مصير شعب غير شعبهم . ولست أريد أن اتناول هنا مخالفة هذا الوعد للعهود التي قطعها الانكليز للعرب – على اهميتها – لاني اقتصر في بحثي هنا على الناحية المبدأية فحسب ، دون النواحي الاخرى السياسية أو سواها ، التي هي أيضاً في جانب العرب .

ولقد يقول قائل : ان الانكليز اكتسبوا حق التصرف بفلسطين بكونهم افتتحوها وغنموها من الاتراك العثمانيين . والرد على ذلك ان الانكليز لم يفتحوها وحدهم ، بل بمشاركة العرب الذين حالفوهم وهبوا في ثورتهم الكبرى المعروفة لتحرير بلادهم . على ان الرد المبدأي الاهم هو ان حق الفتح لم يعد يمكن اتخاذه دستوراً في التنظيم العالمي ، والا رجعنا بالمدنية الى العصور المظلمة ، ودسنا باقدامنا المبدأ القومي الاساسي : وهو حق كل شعب بارضه وبتقرير مصيره .

وقد يقول آخر : ان وعد بلفور قد اكتسب صفة قانونية دولية عندما اقرته جمعية الامم وجعلت منه اساساً من أسس انتداب انكلترا على فلسطين . والجواب ان ما يبنى على اساس فاسد يبقى فاسداً ولو اقره العالم اجمع . ثم ان الانتداب على فلسطين نفسه مناقض لمبدأ الانتداب العام المنصوص عليه في المادة الثانية والعشرين من عهد

جمعية الامم . فقد جاء في الفقرة الرابعة من هذه المادة : « ان بعض المجتمعات التي كانت تابعة فيما مضى للامبراطورية العثمانية قد بلغت درجة من الرقي يمكن معها الاعتراف موقتاً بكيانها كأمم مستقلة بشرط ان تمدها بالمشورة والمعونة الادارية دولة منتدبة الى ان تصبح قادرة على حكم ذاتها بذاتها . وينبغي ان يكون لرغبات هذه المجتمعات الاعتبار الاول في اختيار الدولة المنتدبة » .

وعليه فادخال وعد بلفور في صك الانتداب على فلسطين ليس مخالفاً لحق العرب الطبيعي فحسب ، بل يناقض كذلك المبدأ الاساسي المتعلق بجميع الانتدابات على الاراضي التي كانت خاضعة للسلطة العثمانية والتي اعتُرف باستقلالها موقتاً . فان سياسة الهجرة والعمل لانشاء وطن يهودي قومي ينتقصان ، ولا شك ، من هذا الاستقلال المعترف به . ناهيك بان اهل فلسطين لم يؤخذ رأيهم لا في الانتداب نفسه ، ولا في اختيار الدولة المنتدبة .

وهكذا ظلت فلسطين تحكم مدة خمس وعشرين سنة بنظام غير مبني على مبدأ طبيعي او قانوني ، بل قائم بالفعل على القوة والمصلحة . وبهذه القوة سُطي على سيادة العرب بدلاً من ان يحافظ عليها ، وأصبح كيانهم في بلادهم محفوفاً بالخطر ، مهدداً بالزوال .

وجاءت الامم المتحدة اليوم فاقترفت الجريمة نفسها ، وضحت بالمبدأ على مذبح المصلحة . فقرارها في التقسيم يخالف

لحق أهل فلسطين بتقرير مصيرهم بالطرق الديموقراطية المعروفة ومناقض كذلك لميثاق الامم المتحدة نفسه نصاً وروحاً .

فلو فرضنا ان الانتداب على فلسطين يقوم على اساس قانوني – وهو ما اظهرنا بطلانه – فاننا لا نجد في أية مادة من مواد الفصل الثاني عشر من الميثاق ، الذي يتناول البلاد المنتدب عليها ، ما يعطي الامم المتحدة حق تقسيم هذه البلاد او التصرف بها كما تشاء . وانما هناك مبدأ واحد وخطة معينة لا محيد عنهما . وهما مساعدة هذه البلاد على نيل استقلالها وتقرير مصيرها بنفسها .

ولذا فقرار الامم المتحدة – كصك الانتداب – لا يقوم على اساس مبدأي او قانوني . وقد تقدمت الوفود العربية باقتراح مآله احالة هذه المسألة الى محكمة العدل الدولية لتبدي رأيها في صلاحية الامم المتحدة لتقرير التقسيم ، فرُدّ حتى هذا الاقتراح ، مما يدل على ان الامم المتحدة ، تحت ضغط القوى والمصالح المختلفة ، لم تكن مستعدة لأن تستمع الى صوت أعلى مرجع قانوني في العالم في هذه القضية .

نستنتج من كل ما تقدم أن الكفاح ضد الصهيونية وضد اقامة دولة يهودية في فلسطين ليس ، من جهة العرب ، كفاحاً قومياً فحسب ، بل هو كفاح من اجل مثل أعلى انساني ، كفاح بين الحق والقوة ، بين المبدأ والمصلحة .

*

وقد يتساءل البعض : أليس للصهيونيين مبادىء يبنون

عليها حركتهم ويكسبون بها دعايتهم ، فيكتسبون بواسطتها العطف والتأييد ؟

أجل ! انهم يلوحون بعدة « مبادىء » ، ولكن ليس منها ما يقف امام الحقيقة والبرهان .

يدعي الصهيونيون ان فلسطين وطن اليهود القومي لانهم سكنوها اجيالا طويلة في الماضي ، ثم اجلوا عنها ، ومن حقهم الآن ان يعودوا اليها . والواقع ان اليهود تسربوا الى فلسطين في الاعصر القديمة ، كما تسرب غيرهم من القبائل السامية الى بلدان الهلال الخصيب ، ولكنهم لم ينشئوا فيها ملكاً سياسياً موحداً الا على عهد داود وسليمان (١٠١٧ – ٩٣٧ ق . م .) ولم يدم هذا الملك سوى سنوات معدودة . حتى في هذه المدة القصيرة لم يشمل حكمهم فلسطين بكاملها بل ظل للفلسطينيين وسواهم قوة ونفوذ في البلاد . ثم انقسم ملكهم دولتين ، شمالية وجنوبية ، تهدمت الاولى سنة ٧٢٢ ق . م . والثانية سنة ٥٨٦ ق . م . وفي خلال الاعصر التالية تفرقوا وحاولوا بناء كيانات سياسية ولكنهم كانوا يخفقون المرة بعد الاخرى الى ان تشتتوا نهائياً في القرنين الاول والثاني للمسيح . ومما يدل على ان علاقتهم بفلسطين علاقة عابرة ان الاسم الذي عرفت به هذه البلاد خلال التاريخ ليس مشتقاً منهم ، بل من اعدائهم الالداء الفلسطينيين . ومن المهم ان نلاحظ انهم حتى في أوج ملكهم لم يكونوا يقطنون المناطق التي ينزلونها الآن والتي أعطيت لهم في التقسيم : اي السهول

والشواطيء ، بل كانت هـــذه موطن الفلسطينيين ومركز نفوذهم .

ثم ان اليهود الصهيونيين الذين يهاجرون الآن الى فلسطين لا علاقة لهم باليهود الساميين البتة . بل هم من جنس آخر يختلف كل الاختلاف عن الجنس السامي . وقد أثبت المؤرخون ان الكثرة المطلقة من يهود اوروبا الشرقية – وهم الذين ينصبّون على فلسطين الآن – يرجعون بنسبهم الى قبـــائل الخزر التي اعتنقت اليهودية في القرن الثامن للميلاد وانتشرت في شرقي اوروبا ووسطهـــا . فهم يمتون الى اليهود الذين نزلوا فلسطين قديماً بالدين فحسب ، ولا يصح ان يُتخذ الدين أساساً لبناء قومية او اقامة دولة .

اما العرب في فلسطين ، فلا يمثلون القبائل التي نزحت من الجزيرة في القرن السابع وحسب ، اذ كان عدد هـــذه القبـــائل قليلا ، وانما يمثلون جميع سكان فلسطين الساميين وسواهم (الفلسطينيين والكنعانيين والاموريين والآراميين الخ.) الذين تتابعوا على فلسطين منذ فجر التاريخ ، ثم تعربوا في القرن السابع وما بعده . فهم سكان البلاد الاصليون ، ولم تكن اقامة اليهود في بلادهم سوى اقامة عابرة موقتـــة اذا قيست بتاريخ البلاد الطويل .

حتى لو سلمنا لليهود بحق تاريخي في الماضي ، فأي حق يخولهم ذلك في الحاضر ؟ لو صحت العلاقة التاريخية أساساً للمطالبـــة بالبلاد والاراضي ، لحقّ للعرب اليوم ان يطالبوا

باسبانيا ، وللطليان بانكلترا ، ولوجب ان يجلو جميع سكان الولايات المتحدة عنها ويعيدوها للهنود الحمر .

فمن أية وجهـــةٍ نظرنا الى المبدأ التاريخي الذي يدعيه الصهيونيون نجده لا يقوم على أساس او يصمد لبرهان .

ويدعي اليهود الصهيونيون ان فلسطين أرضهم ، وعدهم الله بها ، وتنبأ الانبيـــاء برجوعهم اليها حتما . ويؤخذ بعض المسيحيين بهذه الاقوال نظراً لمـــا ورد في بعض الكتب المقدسة من هذه التنبؤات . ولكن هؤلاء المسيحيين ينسون ان اليهود رفضوا الرسالة المسيحية بكاملها ، وانهم بتسليمهم بادعاء اليهود هـــذا يسلمون مهد دينهم الى طائفة رفضته وحاربته خلال الاجيال . ثم كيف يمكننا ان نقبل ان شعباً ما من الشعوب هو شعب الله الخاص ، وان هناك عهداً بين الله تعـــالى وبينه ، وان الله قد خصه بعلاقة او ميزة معينة ؟ ان فكرة « الشعب المختار » أقرب الى النازية منها الى أية فكرة اخرى ، وستلقى نفس ما لقيتـــه تلك من سقوط وانهيار .

ولنلاحظ ان الدولة الصهيونية التي تبنى الآن في فلسطين ابعد ما تكون عن الدين ، فهي دولة علمانية بكل ما في هـــذه الكلمة من معنى ، تستخدم ، في ما تستخدمه ، المبدأ الديني سبيلا للدعاية ، ولكنها تركز نفسها في الواقع على الارض والصناعة والثقافة وسواها من مقومات الدولة العلمانية ، بل تقوم في أساسها على الفتح والاغتصاب – وما أبعد ذلك

عن الدين الصحيح !

ويحاول الصهيونيون ان يسندوا دعواهم في اقامة دولة في فلسطين بما أصاب اليهود خلال الاجيال من اضطهاد ، وما تحملوه من عذاب ، خصوصاً تحت الحكم النازي وفي الحرب الاخيرة . ويشيرون الى عشرات الالوف منهم الذين لا يزالون يعيشون في مخيمات اللاجئين في المانيا وسواها .

ولو فرضنا جدلا انه لم يكن لليهود أي يد في هذا الاضطهاد الذي أصابهم ، ولم يسببوه بشكل من الاشكال ، بل كان كله من مساوىء الشعوب الاخرى ، فمن المسؤول عن ذلك ، وعلى حساب من يجب ان يُصلح ؟ أيصح ان تكون شعوب اوروبا هي التي تضطهد اليهود وتسومهم العذاب ، ثم يُفرض ثمن ذلك على العرب ؟ أمن العدل ان يطلب من العرب ان يعوضوا بأرضهم وسيادتهم عن جرائم الشعوب الغربية واستبدادها ؟ أمن الحق ان يُلقى هذا العبء الثقيل على عاتق العرب ، ويجازوا هذا الجزاء ، مع انهم هم الذين حموا اليهود خلال الاجيال ، ومنحوهم من الحرية ويسروا لهم من الازدهار ما لم يمنحهم اياه أو ييسره لهم أي شعب آخر في الماضي ؟

ان قضية اضطهاد اليهود قضية عالمية ، ولا تحل الا بانتشار روح التسامح الديني والاجتماعي في العالم أجمع . أما اللاجئون والمشردون فتقع مسؤوليتهم على عاتق الشعوب التي اضطهدتهم . وما دام شبح النازية قد زال من اوروبا ،

فما الذي يمنع من اعادتهم الى اوطانهم وتسهيل سبل عيشهم فيها ؟ الحق لو ان صهيونيي اميركا انفقوا على هؤلاء ، وعلى وسائل اغاثتهم واسكانهم ، جزءاً مما ينفقونه على الدعاية الصهيونية وعلى السلاح الصهيوني ، لما بقي ما يدعى قضية لاجئين او مشردين من اليهود .

واخيراً ان اقامة دولة يهودية في فلسطين لن تخفف في الواقع من اضطهاد اليهود في الغرب ، ولن تحل مشكلتهم ، بل قد تعقد هذه المشكلة وتزيد التعصب والاضطهاد وتدفع بالشعوب الغربية ، كلما نزلت بهم نازلة وشعروا ان لليهود يداً فيها ، الى ان يحملوا عليهم ، ويدعوهم الى الخروج من بلادهم والهجرة الى فلسطين . وهذا ما ينظر اليه عقلاء اليهود في العالم بقلق شديد ، ولكنهم لا يستطيعون ان يعلنوه وان يقفوا في وجه الاقلية الصهيونية المتماسكة المكافحة .

يقول الصهيونيون انهم لم يغتصبوا ارض فلسطين ، بل اشتروها بمالهم ، وان لهم بذلك حقاً في ان يقيموا دولة عليها . ويؤخذ البعض بهذ القول ، ناسين ان فلسطين كانت في خلال السنين الخمس والعشرين الاخيرة تحت نوع من الحكم يسهّل بيع الاراضي هذا ، بدلا من ان يحدده او يمنعه . ومن هنا فائدة الاستقلال وقيام حكومة تحرص على سيادة الشعب وعلى حفظ تراثه . تُرى لو ان جماعات غريبة نزلت لبنان أو أي بلد آخر مستقل واخذت تستهوي اهله بالاثمان الباهظة فتشتري الاملاك ، وتنال الامتيازات ، وتؤلف الشركات

لاستثمار موارد البلاد ، وتسن لنفسها قوانين تحصر هذه الاملاك والموارد بها نفسها وتمنع عودتها بشكل من الاشكال الى اصحابها الاصليين – ترى لو حدث ذلك ، أتقف الحكومة مكتوفة اليدين ، ولا تتخذ اجراءات لحماية الارث الوطني والموارد القومية ؟ لم تبذل الدولة المنتدبة هذه الحماية ، بل بالعكس كان الوضع الاقتصادي الذي اقامته في فلسطين ، والضرائب الباهظة التي فرضتها لدعم نظام مصطنع ، كان ذلك مشجعاً على اضاعة ما أضيع من الارث الوطني بدلا من صونه وحمايته . وليس معنى هذا ان العرب غير مسؤولين مطلقاً عما حدث من هذا القبيل ، وانما معناه ان المسؤولية تقع في الدرجة الاولى على من حرم العرب استقلالهم ، ووضع مقدراتهم في أيدي حكومة غريبة عنهم ، وانشأ في بلادهم وضعاً يرمي صراحة الى هدم كيانهم واقامة كيان آخر على انقاضه . يضاف الى ذلك ان مجرد امتلاك اراض في بلد موحد جغرافياً لا يصح ان يتخذ اساساً لتهديم هذه الوحدة الجغرافية ، واقامة دولة غريبة فيها . بل يجب ان يحافظ على هذه الوحدة ويُنشأ الكيان السياسي على اساسها بالطرق الديموقراطية المعروفة .

*

هذه هي بعض « المبادىء » التي يبني عليها الصهيونيون دعايتهم . وهي ، وأمثالها مما لا يمكننا تناوله في هذا المقال ، لا تستند ، كما وجدنا ، على اساس صحيح او دعامة قوية . وكلها تنهار وتتبدد امام الحقيقة الواحدة الناصعة التي لا تقبل

رداً : وهي حق العرب في تقرير مصيرهم ، وفي الاحتفاظ بميراثهم الطبيعي الذي ورثوه عن اجدادهم .

فما الذي يمنع عنهم هذا الحق ؟ ؟

القوة والمصلحة .

اما القوة فقوة اليهود العالمية : سياسياً ، ومالياً ، وثقافياً .

لقد تجلت هذه القوة في الحرب العالمية الاولى فاقتطعت من الحكومة الانكليزية وعد بلفور ، وفرضت على اعضاء جمعية الامم ادخاله في صك الانتداب ، وظلت تحت الانتداب تعمل في انكلترا واميركا لتأمين متابعة سياستها الاغتصابية ، بالرغم من تنبه ساسة الانكليز الى اخطارها ، وبالرغم من الثورات العربية المتتابعة . ولقد تمركزت هذه القوة في السنوات الاخيرة في الولايات المتحدة . ولا يستطيع ان يقدرها حق قدرها ، ويتصور هول خطرها ، الا من أقام في تلك البلاد ودرس أحوالها . فكثير من الصناعات والمؤسسات المالية الاميركية هي في ايدي اليهود ، وكذلك قل عن الصحف والراديو والسينما وسواها من وسائل الدعاية ، علاوة على اصوات الناخبين اليهود في ولايات نيويورك والينويز واوهايو وسواها من الولايات التي لها اهميتها في انتخابات الرئاسة ، خصوصاً في هذه الايام والنزاع على أشده بين الديموقراطيين والجمهوريين ، وكلاهما يسعى لاكتساب الاصوات من أية ناحية كانت .

ويكفي ان نعلم ان يهود الولايات المتحدة ، جمعوا في سنة ١٩٤٦ مئة وخمسة ملايين دولاراً ، وفي هذه السنة مئة وسبعين مليونا ، ويعدون الآن العدة لجمع ثلاثمائة وخمسين مليونا ، لاعانة الدولة اليهودية الجديدة — يكفي ان نعلم ذلك لنقدر خطر هذه القوة في الولايات المتحدة ، وبالتالي في العالم اجمع .

هذه هي القوة : قوة اليهود . اما المصلحة : فمصلحة الاحزاب الاميركية الداخلية ، وهي ، في الواقع وكما يعلم حق العلم العارفون في اميركا ، مناقضة لمصلحة اميركا العليا كدولة ذات مصالح هامة في البلاد العربية . ثم هناك مصلحة روسيا بان تجد لنفسها منفذاً في الشرق الادنى من وراء الحصون التي تبنيها في وجهها الدول الانكلوسكسونية في اليونان وتركيا وايران . فاذا اضطربت الحال في فلسطين وتدخل مجلس الامن بمجموعه ، أو بواسطة بعض اعضائه ، كان للسوفييت مجال للنفاذ الى هذه المنطقة الحيوية من العالم ، من وراء خطوط دفاع الانكلوسكسون الاولى .

هاتان المصلحتان : الاميركية الداخلية ، والسوفييتية الخارجية، اتفقت مع المصالح الاستعمارية الاخرى ومع قوة اليهود العالمية ، فأدت الى قرار التقسيم ، والى تضحية الحق والمبدأ .

*

ولذا اعود في ختام هذا المقال إلى ما قررته في بداءته من ان جوهر القضية الفلسطينية صراع بين الحق والمبدأ من

ناحية ، والقوة والمصلحة من ناحية ثانية .

وسيكون هذا الصراع عنيفاً طويلا وسيتطلب من العرب اعظم جهد وابلغ تضحية . واذا هم لم يبذلوا هذا المطلوب ولم يضحوا بالغالي والرخيص في هذا السبيل فقد عرضوا انفسهم لخطر هائل يهددهم في جميع اقطارهم ومنازلهم .

فلو اقيمت دولة يهودية فعلاً في فلسطين وتركزت دولياً باعتراف الامم المتحدة وسائر الدول بها ، فلن يطول الوقت حتى يصبح لها اكبر قوة جوية في الشرق الادنى ، وحتى نرى لها — لا سمح الله — اسطولا تجارياً وحربياً يسيطر على هذه الشواطيء بكاملها ، وجيشاً ميكانيكياً منظما مدعوماً بالذخائر الوافرة والاختراعات الجهنمية . وستفتح هذه الدولة ابوابها لالوف المهاجرين يتدفقون عليها من اوروبا ولملايين الدولارات تنصب عليها من اميركا ، فتغدو قوة بشرية ومالية يصعب حصرها في منطقتها ، فتتسرب بكل شكل ممكن الى بقية البلدان العربية ، وفي حال اضطراب عالمي تشكل خطراً عظيما على هذه البلدان . ويزيد في هذا الخطر كونها تحتل الشواطيء والمنافذ البحرية ، وتقوم في بقعة حيوية بين البلاد العربية . ففلسطين بمثابة الجسر بين هذه البلاد اذا استولت عليه ايد غريبة قطعت بينه العلاقات وفكت عرى التعاون والاتحاد .

سيكون كفاح العرب عنيفاً مديداً ، وسيقويهم في كفاحهم هذا انهم يردون عن انفسهم خطراً من أشد ما

عرفوه في تاريخهم هولا وجسامة ، خطراً يهدد ذات كيانهم في مختلف بلادهم ، خطراً يعرض حقهم الطبيعي واستقلالهم المكتسب ، أنى كانوا ، للزوال والانهيـــار . وسيقويهم في كفاحهم كذلك انهم في جانب الحق والمبدأ ، يجابهون القوة والمصلحة في افظع اشكالها . وقد تتغلب القوة على الحق ، والمصلحة على المبدأ ، حيناً ، ولكنها لن تتغلب اخيراً . فبورك البذل ، وبوركت الضحايا ، في هذا الجهاد الكريم المقدس !

لماذا نجاهد في فلسطين ؟ *

•

لماذا نجاهد في فلسطين ؟ لمَ ترمي الشعوب العربيـــة بالالوف من شبانها في حومة النضـال ؟ لمَ يرتفع صوت ممثلي العرب في الامم المتحـــدة وسواها من المحافل الدولية دفاعا عن موقف دولهم وشعوبهم ؟ ما هي القضية التي هببنا جميعاً للكفاح في سبيلها بالقلب واليد واللسان ، بل بالحياة نفسها ؟

الجواب الاول على هذا السؤال هو اننا نجاهد لنرد عن انفسنا التهجم والاعتداء ، ولنحمي كياننا من هول التحكم والاستعمار . وفي الواقع ان البلاد العربية لم تجابه في تاريخها

* القيت من محطة الاذاعة اللبنانية مساء ٣١ ايار سنة ١٩٤٨

الطويل خطراً أشد من هذا الذي تتعرض له اليوم . فان القوى التي يملكها الصهيونيون في شتى أنحاء العالم كفيلة ، اذا تسنى لهـا ان تستقر في فلسطين ، بان تهدد استقلال جميع البلاد العربية وتكوّن خطراً هائلاً دائماً على حياتها . وان ما لهذه القوى من وسائل النمو والتوسع سيجعل العالم العربي ابداً تحت رحمتها ، وسيشل حيويته ويصرفه عن التقدم والتطور في معارج الرقي والعمران — هذا إذا قُدر له البقاء .

فنحن انما نجاهد اذن بالدرجة الاولى دفعاً لاعتداء غادر علينا ، ومحافظةً على ذات وجودنا . واذا تشدق المتشدقون في الامم المتحدة او سواها بان عملنا هذا هو عمل اعتدائي ، فانهم انما يقلبون الوقائع رأساً على عقب ، ويجرمون في نظر الحق والتاريخ ، ويسجلون على انفسهم ، بانهم وحلفاءهم هم المعتدون ! ولا فرق في نظر التاريخ ما اذا كان هؤلاء المتشدقون يمثلون دولا كبرى او صغرى ، فاللعنة ستلحق بهم ايا كانوا ، وسينالون يوماً جزاء اعمالهم ، لان الشر كفيل بان ينقلب على صاحبه والجرم بان يعود فينصبّ على مقترفه .

*

على ان لجهادنا الحاضر معنى أهم من هذا الذي ذكرنا ، وقيمة تتعدى حدودنا الى العالم اجمع وتمتد من الحاضر الى آفاق المستقبل البعيدة . ذلك اننا لا ندافع عن حقنا فحسب ، بل عن مبادىء تهم كل شعب من شعوب الارض ،

وتتخذ لدى الحكم العادل صبغة عالمية ، ومغزى تاريخياً . وبذلك يتصل جهادنا بالجهاد الانساني خلال العصور في سبيل الحفاظ على القيم الباقية والحريات البشرية الاصلية .

ومن حقنا نحن العرب ، بل من واجبنا ، ان نكشف عن هذا المعنى الاوسع الاعمق من معاني جهادنا ، لنتبين ، ولنبين للعالم ، خطورة هذا الجهاد ، ولنضع انفسنا حيث يجب ، في الموكب الانساني المناضل عن الحق والمبدأ . وهو الموكب الوحيد الذي يسبغ على الحياة البشرية معناها ويخلق اثراً ايجابياً في التاريخ . اذ ليس التاريخ الحقيقي سوى قيم انسانية تُكتسب ، ومواقف أدبية تتخذ ، ومبادىء توضّح وتحقق .

المبدأ الاول الذي ينطوي عليه جهادنا هو حق كل شعب في الارض التي يعيش عليها ، والتي ورثها من آبائه واجداده — حقه في ان يستغلها ويقيم فيها النظام الذي يختاره ، شرط ان لا يكون في ذلك تعدٍّ على سواه . هذا الحق ، حق تقرير المصير ، مبدأ انساني اصيل ما زالت البشرية منذ فجرها الاول تسعى لتحقيقه ، وما زال القادة والمصلحون ينادون به ، والجماهير الشعبية تضحي بشيبها وشبابها في سبيله . فاذا قام العرب اليوم يكافحون من اجله ، ضد الاعتداء الصهيوني ، واذا ظلوا يهبّون ضد كل محاولة او مناورة في الحاضر او المستقبل لتهديده او للتعدي الخفي باسمه وتحت لوائه ، فانهم لا يعملون لصون كيانهم فحسب ، بل لتدعيم ركن من اركان الحياة البشرية السليمة ، والتقدم العالمي

الصحيح .

وعلى الامم الكبرى التي كان وما يزال قادتها يلوّحون بهذا المبدأ كلما تأزمت احوال العالم واحتاجوا الى معونة الشعوب الصغيرة – على هذه الامم ان تتبين اليوم أي موقف تقف منه ، في الصراع القائم في فلسطين بينه وبين قوة المال والسياسة والنفوذ . لقد قال احد قادة هذه الامم في الحرب الماضية : « السلام وحدة لا تتجزأ » . أجل ! وكذلك هو الحق ، والحرية ، والمبادىء وحدات لا تتجزأ : لا معنى لها اذا طبقت على شعب دون آخر ، وفي صقع من اصقاع العالم دون سواه ، او إذا نودي بها خداعاً وتغريراً ولم تتسرب الى صميم الفكر والعمل . ومهما كان موقف الامم الاخرى ، فالعرب يعلمون اين يقفون في هذا الصراع . وفي فوزهم فوز لمبدأ اساسي من مبادىء الاجتماع الانساني ، وغنم للبشرية جمعاء .

*

والمبدأ الثاني الذي يتضمنه الجهاد العربي في فلسطين هو التسامح الطائفي . فلقد صوّر الصهيونيون للعالم كذباً وخداعا ان في اقامة دولة صهيونية في فلسطين حلًا للقضية اليهودية العالمية . وفي الواقع ان الدولة المزعومة لا تحلّ هذه القضية الكبرى ، بل تزيدها تعقيداً ، وتهيب بالدول الى الشك بولاء رعاياها اليهود ، والى اعتبارهم اجانب عنها والضغط عليهم بشتى الطرق لاجلائهم الى تلك الدولة الخادعة المخدوعة . بهذا سيبقى موقف

اليهود متأرجحاً بين ولائين ، وسيظلون يُنظر اليهم شزراً ، بل سيزداد موقفهم حراجة . فقد حاولوا محاولة خاطئة : حاولوا بناء قومية على اساس دين واعتقاد ، خلافاً لما اثبته التاريخ وقضت به سنن السياسة والاجتماع .

لا ! ان القضية اليهودية العالمية لا تحلّ إلا على اساس نشر التسامح الطائفي ، وتدعيم مبادىء الكرامة الانسانية . بالجهاد السياسي والاقتصادي والاجتماعي . انها مرتبطة بالكفاح الشعبي ضد الاستعمار الخارجي والداخلي ، وضد كل استئثار ينال من حرية الفرد او الجماعة . هي مشكلة عالمية يتوقف تذليلها على استعداد اليهود انفسهم للانصهار في الجسم الانساني ، وعلى انتصار مبادىء حرية الفكر والعقيدة : وهي مبادىء لا تمس اليهود فحسب ، بل كل فرد او جماعة او طائفة .

والعرب في دفاعهم عن التسامح الطائفي وحرية العقيدة انما يجرون على تقليدهم الماضي . فقد بذلوا لليهود خلال التاريخ من الحرية ما لم يبذله لهم أي شعب آخر . وبلغ ابناء هذه الطائفة في عهود النفوذ العربي من الحكم وعلو الشأن ما لم يبلغوه في أية دولة اخرى . ولا يزال العرب يصرحون بانهم مستعدون للعيش واليهود في ظل حكم ديمقراطي واحد ينال اليهود فيه من الحقوق ما يؤهلهم له عددهم ، ويتمتعون بنفس الحريات والواجبات التي يتمتع بها العرب ، مما لم يتحقق بعدُ فعلا في كثير من دول العالم .

على هذا الشكل من تحقيق الحريات الديمقراطية تحل

القضية اليهودية . والعرب في جهادهم لمنع اقامة دولة صهيونية في فلسطين ، انما يخدمون هذه الحريات نفسها بتوجيههم القضية الى حلها الصحيح ، ويكشفون القناع عن رياء الدول التي تنادي بالدفاع عن اليهود وتغلق بالوقت نفسه دونهم ابوابها . ان الجهاد العربي في فلسطين جهاد ضد هذا الباطل وامثاله ، وكفاح من أجل معالجة قضية طائفية على أسس سليمة ، ولتحقيق حريات اساسية لا يزال المدافعون عن الصهيونيين ابعد الناس عن تحقيقها ، بل هم بدفاعهم هذا يعملون ، جهلا او عمداً ، على اضعافها وتقويضها .

*

والمبدأ الاخير والاهم الذي ينطوي عليه الجهاد العربي في فلسطين هو تغليب المبادىء على المصلحة في التنظيم العالمي . ان العالم ليشهد اليوم اسوأ مهزلة عرفها التاريخ . يشهد منظمة أممية تضم اكثر دول العالم ، عاجزة عن ان تحل مشكلة واحدة من المشاكل الدولية . ها ان الامم المتحدة ، بهيئتها العامة ومجلس الامن ومجلس الوصاية ، لم تستطع بعد ان تحسم خلافا واحداً من الخلافات التي تصدّع جبهة البشرية وتنذر بحرب جديدة هائلة : في كوريا والصين واندونيسيا والهند وايران وفلسطين واليونان والمانيا ، بل في كل بقعة حساسة من بقاع الارض . وما ذلك الا لان الدول الاعضاء لا تزال تغلّب المصلحة على المبدأ ، والدول الكبرى خاصة لا تزال تسيّرها شهوة التحكم والاستئثار لا الرغبة في تحقيق القيم الصحيحة في

حياة الشعوب وعلاقاتها بعضها ببعض . والعرب في دفاعهم الحاضر انما يقفون في وجه المصلحة والشهوة ، فلا يخدمون انفسهم فحسب ، بل يخدمون العالم اجمع ، ويقومون بنصيبهم في تنبيه البشرية الى الطريق الوحيدة التي تؤمن سلامتها — طريق المبادىء الاساسية الثابتة ، لا المصلحة المترجرجة والشهوة الغاصبة .

*

ليس في بلاد العالم بلد له من القيمة العالمية ما لفلسطين . ولم تحتلّ فلسطين مكانتها في التاريخ بميزاتها الطبيعية ومواردها المادية ، وانما بالمعاني الانسانية والقيم الرفيعة والمبادىء الاصيلة ، التي شعت منها على العالم باجمعه . والجهاد العربي اليوم لا يتخذ معناه الصحيح الا من ضمن هذا الاطار وعلى ضوء هذه الحقيقة . انه جهاد عربي في سبيل الحفاظ على كيان العرب واستقلالهم ، ولكنه الى جانب هذا — بل اقول قبل هذا — جهاد انساني عالمي ارجو ان يظل يتابع تقليد فلسطين الايجابي في بث القيم الصحيحة ، والدفاع عن المبادىء والحريات والمسؤليات الانسانية الاصيلة .

فهرست

السلسلة السياسية

تعالج اكبر مشكلات الساعة في العالم

●

ظهر منها :

١ – هذه هي الديمقراطية : للرئيس ادوار بنيش
٢ – عالم واحد : لمستر وندل ويلكي
٣ – عالمان : لوليم زيف
٤ – الثلاث الكبار (روسيا ، بريطانيا ، الولايات المتحدة) : لد. دالين
٥ – ساعة الحسم : لمستر صمنر ويلز
٦ – آخر أيام هتلر : تريفور روبر
٧ – قصة الاستقلال في سوريا ولبنان : الليدي سبيرز
٨ – سأتكلم بصراحة : لمستر برنز
٩ – سحابة بورتسموث : صدر الدين شرف الدين

ثمن النسخة ٢٠٠ قرش لبناني أو ٢٢٠ فلساً أو مليماً أو ملاً

●

أعلام الحرية

سلسلة أدب ورواية وتاريخ

للاستاذ قدري قلعجي

●

ظهر منها :

١ – سعد زغلول : رائد الكفاح الوطني في الشرق العربي
٢ – ابراهيم لنكولن : محرر العبيد وموحد الولايات الاميركية
٣ – مدحت باشا : ابو الدستور العثماني وخالع السلاطين
٤ – روبسبيير : بطل الثورة الفرنسية
٥ – جمال الدين الافغاني : حكيم الشرق
٦ – شوبان : نشيد الحرية والوطنية
٧ – صلاح الدين الايوبي : رجل غيّر وجه التاريخ
٨ – كرومويل : بطل الثورة الانكليزية
٩ – ابو ذر الغفاري : أول ثائر في الاسلام
١٠ – ديموستين : بطل أثينا
١١ – غاندي : ابو الهند

ثمن النسخة ١٥٠ قرشاً لبنانياً أو ١٧٠ فلساً أو مليماً أو ملاً

من كتب دار العلم للملايين

●

		قرش
منهج البحث في الادب واللغة	ترجمة الدكتور محمد مندور	١٥٠
التربية الوطنية (طبعة عامة)	للاساتذة جحا وشهلا ومحمصاني	٤٠٠
تجديد مناهج إعداد المعلمين في العراق	للدكتور خالد الهاشمي	٤٠٠
العرائس (شعر)	للاستاذ ابراهيم العريض	٢٢٥
على المحك (نقد)	« مارون عبود	٤٠٠
كيف تغلب الانسان على الالم	للدكتور نقولا فياض	٢٠٠
اشواق (قصص)	للاستاذ سهيل ادريس	٢٠٠
الحب العذري	« موسى سليمان	٢٠٠
حفنة ريح	« سعيد تقي الدين	٣٠٠
قبلتان (قصة شعرية)	« ابراهيم العريض	١٧٥
يحكى عن العرب	« موسى سليمان	٢٠٠
نيران وثلوج (قصص)	« سهيل ادريس	١٠٠
مجددون ومجترون (نقد)	« مارون عبود	٣٠٠
النكتة المصرية	« عبد العزيز سيد الأهل	١٠٠

٩٧ ـ ٨ ـ ٤٨